درب الأربعين وأهميته الدينية والتجارية
خلال العصر العثماني

د.محمد عبد الحميد الحناوي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد
كلية الآداب – جامعة أسيوط

أولاً : درب الأربعين وأهميته الدينية والتجارية

يقول المولى عز وجل في كتّابه الكريم وهو أصدق القائلين :
" وَهُوَ الذِّي جَعَلَ لكم الأَرضَ ذَلولاً فامْشوُا في منَاكِبهَا وكُلُوُا منْ رِزْقِهِ وإليهِ النّشورُ" [1] صدق الله العظيم

مثلت مصر في العصور الإسلامية المختلفة وحتى نهاية العصر العثماني المحور الأساسي للنشاط الاقتصادي لبلدان المغرب العربي والسودان الغربي في المشرق العربي، وكانت مصر قبلتهم الثقافية والعلمية التي يفدون إليها ليدرسوا ويتعلموا في أزهرها الشريف وفي مدارسها الدينية المختلفة ، إلي جانب أن مدنها الشمالية والجنوبية كالإسكندرية [2] وأسيوط كانت بمثابة محطات لتجاراتهم الشرقية إلي جانب كونها محطات رئيسة وهامة في طريقهم لأداء أسمى وأرفع شعائرهم الدينية ألا وهي فريضة الحج ؛فلم يكن الحج مجرد تأدية فريضة من فرائض الإسلام فحسب، بل كان في المحل الأول مجالاً كبيراً لممارسة النشاط

---

[1] سورة الملك – الآية (١٥) .

[2] عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم(دكتور):وثائق عن دور الجالية المغربية في تاريخ مصر العثماني(المجلة التاريخية المغربية) ، تونس العدد(٩) ، يوليو ١٩٧٧ ، ص ٦٤ .

التجاري [1] إذ إن الارتباط بين الحج إلي بلاد الحجاز والتجارة كان ولا يزال وثيقاً بين الشعوب الإسلامية . وكان معظم الحجاج يقومون بمزاولة أنشطتهم التجارية وهم في طريقهم إلي الحجاز وأثناء عودتهم منه [2] ، وعن طريق تلك التجارة يتم تبادل العديد من السلع، وكان يخدم هذه العلميات التجارية مجموعة من المحطات والمدن الرئيسة الواقعة في طريق قوافل الحج .

وكانت قوافل بلاد المغرب والسودان الغربي والجنوبي وحجاج بيت الله الحرام تفد إلي مصر عبر طريقين رئيسيين :

الطريق الأول : وهو الطريق الساحلي من الغرب إلي الشرق مروراً بالإسكندرية سواء بطريق البر أو البحر ثم الاستمرار إلي بلاد الحجاز عن طريق شبه جزيرة سيناء بصحبة قافلة الحج المصري [3] .

أما الطريق الثاني : فهو الطريق الجنوبي أو طريق الصحراء عبر درب الأربعين في أغلب أجزائه ؛ بالإضافة إلي طرق ودروب الحج الفرعية الأخرى التي تصب في الطريق الرئيسي للدرب من جنوب بلاد المغرب العربي ليبيا ، وتونس ، والجزائر ، ومراكش ، وبلاد السودان الجنوبي والغربي من موريتانيا، وتشاد ، ومالي ، والسنغال ؛ وهذه الطرق والدروب الفرعية تتجمع في الغالب عند جبل العوينات وهضبة الجلف الكبير على مشارف ليبيا والسودان جنوبي مصر ، ثم تتخذ الجزء الشمالي من درب الأربعين طريقاً لها حتى واحة الخارجة عند مرتفع

---

(1) محمد أنيس (دكتور) ، السيد رجب حراز (دكتور) : الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٨٢.

(٢)هاملتون جب ، هارولد بوون : المجتمع الإسلامي والغرب ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، القاهرة ، ١٩٧١ ،ج٢، ص ١٤٩.

(٣) سميرة فهمي علي عمر :إمارة الحج في مصر العثمانية ٩٢٣ - ١٢١٣ هـ / ١٥١٧ – ١٧٩٨ ، القاهرة ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (تاريخ المصريين – ٢٠١) ، ٢٠٠١ ، ص ص ٢١٢ – ٢١٤ .

البجوات أو حافة جبل الطير ، وأغلب رواد هذا الجزء من عرب بلاد المغرب الأوسط والأقصى لقصر المسافة بين تلك المناطق وجنوب مصر[1]. وقد كان هذا الطريق يسير بمحاذاة نهر النيل متجها نحو الجنوب حتى قنا أو قوص ثم إلي عيذاب أو القصير حيث استخدم مع طريق شبه جزيرة سيناء لخدمة حجاج بلاد الأندلس والمغرب،والسنغال ، وبلاد التكرور والسودان الغربي والشرقي ، وبعض حجاجا لأناضول فيجتمعون في القاهرة قبل شهر رمضان ثم يسيرون منها إلى قوص براً أو في النيل لنحو عشرين يوماً ثم تسافر قوافلهم منها في صحراء عيذاب لمدة خمسة عشر يوماً حتى يصلوا إلي القصير [2] ، التي شيد فيها الأتراك العثمانيون في النصف الأول من القرن السادس عشر قلعة كبرى لحماية الحجاج والدفاع عن البحر الأحمر ضد هجمات البرتغاليين ، كما شيدوا مركزاً لتجمع الحجيج الوافدين من الشمال ، حيث كانت القصير مفضلة لهم لقربها من ميناء ينبع والمدينة المنورة [3].

وقد عرف طريق درب الأربعين كواحد من الطرق والدروب الصحراوية الإسلامية الباكرة مع اندماج وحدات بلاد المغرب في بوتقة الدولة العربية الإسلامية، وازدياد ارتباط المغرب بالمشرق الإسلامي ، إذ أصبح الدرب يمثل شرياناً حيوياً للتجارة البرية بين البلاد المصرية ثم إلي بلاد شبه الجزيرة العربية من جانب ، وبين بلاد السودان الجنوبي والغربي وجنوب بلاد المغرب العربي من جانب آخر. وكان عماد إنسان هذه المناطق في اجتياز الصحراء ؛ الجمل والماء،

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم المصدر السابق ص١٨٣

(٢) سميرة فهمي علي عمر : مرجع سابق ، ص ٣٠١ ، عبد العال عبد المنعم محمد الشامي (دكتور): درب الحاج المصري ، القاهرة ،١٩٩٨، ص٧ . وعن أصل تسمية التكرور،ارجع إلي :عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية،جـ ٢ ، القاهرة الأنجلوا المصرية ، ١٩٨٠. ص ٧٢٩،بوركهارت : رحلات في بلاد النوبة والسودان ، ص ٣٢١ .

(٣) جريدة الأهرام ، عدد ١٩ نوفمبر ٢٠٠٥م .

والدليل، والاهتداء بالنجوم لاجتياز القفـــارى " **وَعَلامـــات وبالنَّجْـــمِ هُـــمْ يَهتَـــدونْ** " [1] صدق الله العظيم .

وقد استطاعت جامعة أسيوط من خلال قسم التعدين بكلية الهندسة بالجامعة، وبالتعاون مع مؤسسة الأبحاث الجيولوجية والتعدين ، وهيئة تعمير الـصحاري ؛ ومؤسسة الطاقة الذرية ؛ ومحافظة الوادي الجديد أن تستكشف هذا الجزء الهام من درب الأربعين الواقع في نطاق الأراضي المصرية من خلال بعثة علمية شـكلت لهذا الغرض وذلك عام ١٩٦٩ [٢] بعد أن أُهمل ارتياد هذا الطريـق الـصحراوي الحيوي .

وقد قام فريق العمل البحثي بارتياد المسافة ما بين نقطـة تلاقـي الحـدود "المصرية الليبية "وحتى واحة الخارجة في الشمال الشرقي والتي تتجـاوز الألـف وأربعمائة كيلو متر ، وأهم محطاتها بلدة باريس (بيريس)جنوب واحة الخارجـة، ومقتل الدراويش، وجبل شرشر ، وبيرمر، وأبوالحصين ، وبيركسيبة، وبيركـريم والشب ، وجبل القارة ، وبير دبس ، وبير مساحة على مقربة من الحدود الشمالية للسودان ثم كركور عند التقاء الحدود المصرية السودانية ثم يتجه الطريـق إلـي

---

(1) سورة النحل الآية (١٦) .

(٢) مثل جامعة أسيوط في هذه الرحلة الاستكشافية التي استغرقت ثلاثة عشر يوماً بدءًا من ١٥ مارس١٩٦٩الدكتور/ محمد رجائي الطحلاوي- المدرس بقسم التعدين بكلية الهندسـة بالجامعـة الـذي أصبح فيما بعد رئيساً لجامعـة أسـيوط(١٩٩١-١٩٩٦)ثـم محافظـاً للإقلـيم(١٩٩٦-١٩٩٩)أنظر:محمد رجائي الطحلاوي(دكتور):رحلة علمية إلي العوينات وهضبة الجلف الكبيـر على مشارف ليبيا والسودان (من محاضرات الموسم الثقافي٦٨ /١٩٦٩)،جامعة أسيوط ١٩٧٢.
كما أرسلت صحيفة الأهرام بعثة تجوب صحراء مـصر الغربيـة واستكـشاف طريـق درب الأربعين بدءاً من أسيوط وحتى منطقة العوينات عند التقاء الحدود المصرية – الليبية – السودانية مع بدايات شهر مارس ١٩٣٤ وكان أحد أعضائها الأثرى حسن صبحي : الأهرام ، عـدد ٢٨ أبريل ١٩٣٤ .

داخل الأراضي السودانية ، عند واحة سليمة ثم الأراضي الليبية عند تلاقي حدود الدول الثلاث ومن الواضح أن عدداً كبيراً من آبار المياه والعيون الصالحة للشرب تقع على هذا الطريق ، كما أن هناك عدداً آخر من الآبار التي تقع بعيداً عن نطاق مساره ومصادر المياه جميعها أصبحت الآن آباراً ضحلة تقع مياهها على أعماق لا تزيد عن خمسة أو ستة أمتار من سطح الأرض ، والبحث عن المياه أمر يسير في تلك المنطقة [1] لأنها تدخل ضمن نطاق الحوض الجوفي للمياه العذبة داخل الأراضي المصرية الليبية السودانية ، أما منطقة بير كريم فتقع في داخل واحة صغيرة بجنوب الوادي الجديد (حالياً) وهي أشبه بقرية صغيرة بها عدد من أشجار النخيل والدوم ، وتكثر بها التلال الرملية المعروفة علمياً بـ التلال الفخارية Pottery Hills والتي تدل على وفرة المياه في تلك المنطقة في الأزمنة الجيولوجية القديمة والتي سمحت بنمو العديد من الأشجار. وقد كان للجفاف الذي بدأ يزحف على هذا الجزء أثره المباشر في أن تفترس الرمال هذه الأشجار بالزحف عليها وردمها [2] .

وفي الطريق نحو جبل وواحة العوينات – الحد الفاصل بين ملتقى حدود مصر وليبيا والسودان – يمر طريق الدرب على منطقة بئر كريم ثم بئر مساحة وطوله في هذه المسافة نحو(٢١٠) كيلو متر ويكثر به نبات الدبس،وأشجار الدوم والطلح مما يدل على أنه كان معموراً حتى هُجر الطريق مع بداية القرن العشرين .

وعند العوينات يجد المسافر إحدى الواحات التي تحمل الاسم نفسه (واحة العوينات) وهي تختلف عن بقية واحات الصحراء الكبرى في أنها ليست منخفضة يتسرب إليها الماء وإنما هي عبارة عن منطقة جبلية تتجمع مياه الأمطار في أحواضها الصخرية غير النافذة وبها عدد كبير من العيون متناثرة داخل نطاق

---

(١) المرجع نفسه ص ص ٨ – ٩ .

(٢) المرجع نفسه، ص ص ٩ – ١٠ .

الأراضي المصرية والليبية والسودانية حول جبال العوينات التي تعتبر أكثر جبال الصحراء الكبرى ارتفاعاً ؛ إذ يصل ارتفاعها نحو ١٨٠٠ متر فوق سطح البحر كان الحجاج والتجار من تلك البلاد يدورون حول العوينات لدخول الأراضي المصرية والتي تأخذ شكلاً بيضاوياً يقع الجزء الأصغر منه فى النطاق المصري، وينحدر من هذه الجبال عدد كبير من الوديان الضيقة المتعرجة التي تنمو على جوانبها الحشائش والعوسج وبعض الأشجار والنباتات ، ويطلق على تلك الوديان اسم "الكراكير" لانحدار المياه من عل لأسفل وأعظمها "كركور طلح " فى مصر نسبة إلى أشجار الطلح أو السنط ، و "كركور مر" فى السودان نسبة إلي مرارة مياهها ، " وكركور حامد وإدريس وإبراهيم " في ليبيا ، والبدو من الدول الثلاث وقبائل " التبو " الليبية ، والجرعان لا يزالون يرعون جمالهم وأغنامهم في هذه الوديان خلال فصل نمو الكلأ حيث كانت العوينات محطة لتنقل قبائل الجرعان من شمال واداي نحو الشرق وقبائل الكبابيش نحو الغرب [1] .

ويبدو أن تاريخ الإنسان في هذه المنطقة أقدم بكثير من بداية ارتيادها من جانب حجاج وتجار بلاد المغرب العربي والسودان في العصور الإسلامية والحديثة؛ ففي أماكن عدة توجد رسومات قديمة منقوشة على الصخور وعلى كهوف جبل العوينات بألوان متعددة للأسود، والزراف ،والنعام ،والغزلان ، والأبقار ، وهي حيوانات بعضها لم يعد موجوداً على الإطلاق بالمنطقة كالأسود ، والزراف ،والنعام، فلربما وجدت قبل الميلاد بفترة طويلة حيث كانت العوينات مسرحاً لحضارة زاهرة ممتدة في أعماق التاريخ القديم بدليل وجود آثار حضارة قامت على وفرة المياه ، ووجود العديد من كسرات بيض النعام، وقطع من الأحجار

---

[1] المرجع نفسه ص ١٤ .

الصوانية والحجرية التي شذبها إنسان ما قبل التاريخ لاستعمالها في حياته اليومية[1]

أما واحة " سليمة " إحدى محطات طريق الحجاج والتجار السودانيين والواقعة داخل الأراضي السودانية وإلي جنوب واحة بير كريم بنحو ١٣٠ كم فتتميز بوجود عدد كبير من أشجار النخيل المثمر ويقطنها عدد كبير من البدو الذين يتنقل بعضهم ما بين شمال السودان ومناطقه الداخلية [٢] .

ومن الثابت أن درب الأربعين كانت له أهمية كبرى خلال العصر الإسلامي لأنه كان يمثل طريق درب الحجاج المغاربة والسودانيين نحو مصر ، حيث كان الحجاج المسلمون يرتادونه في طريقهم عبر الأراضي المصرية إلي بلاد الحجاز مروراً بالواحات الخارجة وأسيوط [٣]، وازدادت هذه الأهمية في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م) لأهميته الدينية والتجارية وظل الأمر كذلك في العصر الحديث خلال العصر العثماني (١٥١٧م - ١٧٩٨م)وعصر الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١م) ، ثم عصر محمد علي وخلفائه حتى بداية القرن العشرين (١٨٠٥ - ١٩٠٠م)،وكانت القوافل القادمة من بلاد دارفور وكردفان من غرب السودان وشرقه ، وجنوب بلدان المغرب العربي ، وبلاد التكرور (مالي والسنغال) ترتاد هذا الطريق سواء في رحلة الحج السنوية أو رحلاتها التجارية؛والتي غالباً ما تكون مصاحبة لرحلة الحج ، تحط رحالها

([1]) المرجع نفسه ص ١٦ .

وقد زار هذه المنطقة ضمن بعثة جريدة الأهرام لارتياد طريق درب الأربعين في أوائل عام ١٩٣٤م الأثرى حسن صبحي ، الذي يرى أن النقوش والصور التي اكتشفتها البعثة على جدران كهوف جبال العوينات يرجع تاريخها إلي نحو خمسة آلاف سنة قبل الميلاد : صحيفة الأهرام عدد ٢٨ أبريل ١٩٣٤م .

(٢) نفسه ، ص ١٠ .

(٣) حسين مؤنس (دكتور) أطلس تاريخ الإسلام ، القاهرة ، الزهراء للإعلام العربي ، ١٩٨٧،ص ص ٣٩١ ، ٣٩٥

مرات عديدة خلال سفرها إلي جوار مصادر المياه لتأخذ قسطاً من الراحة ، وكانت أهم محطات هذه الرحلة الطويلة داخل الأراضي المصرية عبر درب الأربعين قرية الخارجة بالتحديد على مرتفع جبل الطير (البجوات) وبعد أن تكون القوافل التجارية قد سددت الرسوم المقدرة عليها لكاشف الواحات في قرية باريس (بيريس) ، إذ لم يكن يسمح لأي قافلة بمواصلة سيرها نحو الشمال في اتجاه أسيوط إلا بعد أن تكون قد سددت ما عليها من رسوم بالكامل [1] .

وقد كانت واحة الخارجة أهم مراكز الاستراحات على طول درب الأربعين فيما بين الفاشر جنوباً داخل إقليم دارفور بالسودان ،وأسيوط شمالاً على نهر النيل بمصر وهي مسافة تصل لنحو أكثر من ألفي كيلو متر ، حيث تتصل الخارجة بوادي النيل بعدة طرق صحراوية مختلفة بعضها نحو أسيوط مباشرة في اتجاه الشمال الشرقي، وبعضها الآخر عن طريق الواحات الداخلة حتى منفلوط وديروط في شمال أسيوط، وبذلك تعتبر همزة الوصل بين صحراء مصر الغربية وجنوب الصحراء الأفريقية الكبرى وبين صعيد مصر على وادي النيل وشاطئ البحر الأحمر حيث ميناء القصير ومنه إلي ميناء ينبع وهو ميناء المدينة المنورة ببلاد الحجاز . ولهذا تفرد منخفض الواحات بمركز جغرافي هام طوال العصور التاريخية المختلفة مما خلق له دوراً تاريخياً ملحوظاً .

وعلى الرغم من هذا الدور التاريخي الهام الذي لعبته الواحات خلال القرون الأولى لدخول المسيحية مصر ، واستمرار هذا الدور حتى انتشار الإسلام بالديار المصرية منذ القرن السابع الميلادي ؛ إلا أن هذا الدور قد تقلص سياسياً واقتصادياً لعدة قرون تالية على الفتح العربي ، على أن عزلة الواحات وانفصالها عن وادي النيل لم يدوما طويلاً إذ أخذت أهميتها تظهر مرة أخرى باعتبارها

---

[1] Girard,P.S Mémoire Sur L'Agriculture,L' I ndustrie Et Commercc de L'Egypte(Déscription de L' Egypte, T. XVIII) ,2em édition Paris , 1820 , PP. 282 – 283

محطات ضرورية للقوافل ، وعلى الأخص قوافل الحج القادمة من بلاد المغرب العربي عبر الخارجة وأسيوط إلي القصير على البحر الأحمر ، ثم قوافل بلاد السودان المارة بها كذلك حتى أسيوط [١] .

وكان طريق الحج عبر درب الأربعين والذي يمر بالخارجة أهم الطرق الآمنة لقوافل الحجاج المغاربة حيث يعمل به جماعة من الأعراب المشتغلين بالوساطة التجارية ونقل الحجاج وتوفير سبل الراحة لهم ، وهكذا بدأت الخارجة وهي واقعة على درب الأربعين وبعض طرق الحج الأخرى وأطرافه تتخذ شكلاً جديداً يشابه ما يعرفه العرب في واحاتهم العربية ؛ فعاد إليها العرب بعد الفتح العربي يعمرونها متخذين منها محط ترحال لقوافلهم بين الشمال والشرق حيث وادي النيل،والجنوب والغرب من مناطق وإقليم السودان وبلاد المغرب العربي [٢] .

قد ساعد على ازدهار طريق درب الأربعين وطرق الحج الأخرى بالصحراء توفر مصادر المياه الجوفية من آبار وعيون في منطقة جنوب الصحراء الغربية لمصر وشرق العوينات،ولا تزال حتى اليوم كثير من الشواهد الميدانية تدل على ذلك بوجود بقايا آبار المياه الضحلة مثل آبار: مر ، وأبو حسين ، وكسيبة،وكريم ، ونخلاي [٣] .

---

[١] سليمان حزين(دكتور):حضارة مصر أرض الكنانة القاهرة ، دار الشروق، ١٩٩١، ص ٢٢٣

[٢] المرجع نفسه ، ص ٢٢٩ .

(٣) محمد رجائي الطحلاوي : مرجع سابق ، ص ٨ ، عبد العال عبد المنعم محمد الشامي : مرجع سابق ، ص ٥ .

يخترق طريق درب الأربعين الآن مشروع القرن الحادي والعشرين بجنوب الوادي والممتد من الواحات الخارجة حتى الحدود المصرية _ السودانية ، ويعتبر طريقاً استراتيجياً هاماً يربط مصر بالدول العربية المجاورة ومعبراً للقارة الأفريقية :على ورور : درب الأربعين طريق استراتيجي ومحور مهم للتنمية:صحيفة الأهرام،عدد ١٢ أبريل ١٩٩٧.

وكانت تصل إلي مصر كل عام قافلة تجارية مصاحبة للحاج من بلاد المغرب العربي إلي جانب قافلتي بلاد السودان وهما : قافلة سنار التي كانت تصل إلي أعالي الصعيد عن طريق وادي حلفا وأسوان ، وقافلة دارفور التي تصل إلي الصعيد الأوسط بطريق درب الأربعين حتى الخارجة ومنها لأسيوط . وقد تتبع اسكافراك Escavrac – أحد الرحالة الفرنسيين ، تجارة هذا الطريق الحيوي من وإلي مصر في منتصف القرن التاسع عشر ؛ على أن هذه التجارة أصابها الاضمحلال بعد سنوات الاحتلال البريطاني لمصر مباشرة نتيجة محاولات بريطانيا التدخل في شئون السودان وإبعاده تجارياً ثم سياسياً عن مصر تمهيداً للسيطرة عليه من خلال إحكام السيطرة على الحدود المصرية لعزل أنصار الحركة المهدية(الدراويش) وثورتهم في السودان والقضاء عليهم خشية امتداد نفوذهم إلي مصر[1].

---

[1] يونان لبيب رزق (دكتور) : الأهرام ديوان الحياة المعاصرة (٤٥) صحيفة الأهرام ، عدد ٢ يونيو ١٩٩٤ .

ثانياً: واحة الخارجة وأهميتها على طريق درب الأربعين

لا شك في أن المتجه من مدينة أسيوط نحو واحة الخارجة عاصمة محافظة الوادي الجديد في الوقت الحاضر عبر الطريق البري الوحيد الممتد لمسافة مائتين وثلاثين كيلو متراً من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي لا يمكن أن يضل الطريق إلي جبانة البجوات المهجورة التي أطلق عليها الأثريون مدينة الأموات Necropolis،بمبانيها العديدة المرتفعة التي تتوج الحافة البارزة المتأخرة لجبل الطير المحاذي للطريق وعلى مسافة خمسة كيلو مترات على يمين الداخل للخارجة[١] . وهي عبارة عن مدينة من المقابر ذات القباب العالية استخدمت للدفن منذ العصر الروماني المتأخر بأسلوب التحنيط المصري القديم وتضم(٢٦٣) مقبرة[٢] إلي جانب بعض(الكنيسات)الصغيرة قام الفنان المسيحي بتسجيل قصص الأنبياء منذ بداية الخلق وحتى عيسى عليه السلام بريشته على جدرانها وسقفها .

ومن المعلوم أن العلاقات بين واحة الخارجة ووادي النيل قديمة جداً تبدأ مع فجر التاريخ المصري القديم ، وكانت الواحات بوجه عام والطرق المؤدية إليها معروفة لدى سكان طيبة (الأقصر) ، وأبيدوس (جنوب سوهاج) [٣] .

---

[١] حرفت كلمة البجوات Bagawat من قبوات أي القباب بلهجة أهل الواحة ، لأنها عبارة عن مجموعة كبيرة متجاورة من المدافن ذات القباب العالية ، وهي الجبانة القديمة لمدينة هيبس Heppis العاصمة القديمة لواحة الخارجة في العصر الفرعوني والبيزنطي،أي أنها تؤرخ زمنياً للقرن الرابع الميلادي : حجاجي إبراهيم محمد (دكتور) النصوص العربية في البجوات ، الرياض، ١٩٨٧ ، ص ١ .

[٢] أحمد فخري (دكتور) : الصحراء المصرية ، جبانة البجوات في الواحة الخارجة ، ترجمة عبد الرحمن عبد التواب ، مراجعة د. آمال العمري ، القاهرة ، هيئة الآثار المصرية ، ١٩٩٨ ، ص ص ١٧ ، ٢٥ – ٢٧ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٧ .

وقد استخدم الموقع الحالي لجبانة البجوات قبل دخول المسيحية إلي الواحات، واستمر استخدامها للغرض الذي خصصت له حتى القرن السابع الميلادي ومن الجائز أنها هجرت كمقابر خلال القرن نفسه [1] إثر الفتح العربي مباشرة عندما دخل المصريون في دين الله أفواجاً وهجروا أساليب وطرائق الدفن المصرية الوثنية التي تعتمد على حفظ الجسد سليماً ، ويدعم هذا الرأي أن التجار والحجاج العرب من مغاربة وسودانيين بعد انتشار الإسلام في بلادهم بعد فتوحات مصر؛ بدأوا يستخدمون هذه المدينة المهجورة كمحطة أو استراحة تحميهم من عوادي الطبيعة في هذه البيئة الصحراوية القاسية صيفاً وشتاءً حتى يتمكنوا من مواصلة رحلتهم ذهاباً وإياباً إلي بلاد الحجاز مسجلين بعض النصوص المكتوبة على الجدران الداخلية لتلك المقابر المطلية بالملاط وذات العقود الجميلة والتي لا تزال بحالة جيدة منذ أكثر من ألف وستمائة عام [2] .

وكانت أفراد مجموعات قوافل الحجاج والتجار عند ما يصلون إلي تلك المقابر يقومون بتسجيل ذكرياتهم وبعض الأحداث التي عاصروها أو بعض الأشعار والأقوال والحكم بجانب أسمائهم ومن رافقهم في رحلتهم الميمونة ، وقد استخدموا بعض المقابر المزينة بالصور أو على الأقل تلك المكسوة جيداً بالملاط [3] المعجون من طينة البيئة المحلية ، وإذا ما نحينا الكتابات والمخربشات القبطية واليونانية القديمة جانباً والتي سُجلت قبل ظهور الإسلام وارتياد العرب المسلمين للموقع ، وتولينا فحص الكتابات العربية منها نجد أنها تبدأ منذ القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) ، حيث دون معظم الزوار من الحجاج والتجار أسماءهم وتاريخ زياراتهم بالتاريخ الهجري ؛ غير أن الكثيرين منهم فضلوا كتابة

---

(1) المرجع نفسه ، ص ١٩ .

(2) المرجع نفسه ، ص ٢٠ .

(3) المرجع نفسه ، ص ٢٠ .

بعض أبيات من الشعر يشير معناها في معظم الحالات إلي النهاية المحتومة لكل إنسان وأنه لا خلود لكائن حي ، وهناك بعض الزوار ربما كانوا من التجار ممن لم يحفلوا بجلال الموت وهيبته وسط تلك المقابر التي يأوون إليها ليلاً ونهاراً لعدة أيام وقام أحدهم بكتابة أبيات من الغزل الرفيع أو كلمات تؤكد هذا المغزى .

ويلاحظ أن معظم المقيمين والزائرين قد راعوا الحفاظ على تلك الرسوم القديمة ، فكانوا حينما يدخلون للمبيت في أحد المقابر المزينة بالتصاوير الدينية القديمة يتحاشون الخربشة أو الكتابة على المساحات المصورة، ويقومون بنقش كتاباتهم على الملاط والمساحات الخالية من الرسومات احتراماً لها [1] وحفاظاً على تلك الغرف التي اعتادوا الإقامة بداخلها لأيام عديدة وكأنهم يعيشون داخل مدينة للأحياء قبل أن يستأنفوا رحلتهم نحو الشمال أو العكس ؛ وبذلك صارت واحة الخارجة بجبانتها محطة مهمة في طريق الحج الذي يربط بلدان شمال أفريقيا والسودان ببلاد الحجاز حيث ترك لنا مئات الرحالة أسماءهم على جدران مقابر تلك الجبانة وإذا ما نحّينا النصوص القبطية والإغريقية والرسوم الجدارية البيزنطية جانباً؛ فإن الكتابات أو المحززات العربية بداخل تلك المقابر والتي حفرتها وخطتها أيدي المسافرين من الحجاج والتجار المغاربة والسودانيين في العصر الإسلامي والحديث طوال القرون من السادس عشر وحتى نهاية القرن التاسع عشر من الأهمية بمكان للتعرف على مدى أهمية موقع البجوات بواحة الخارجة كمحطة استراحة رئيسة للحجاج والتجار والتعرف على ملامح نشاطهم الديني والتجاري أثناء رحلتهم السنوية مجتازين الأراضي المصرية دون حواجز أو عوائق مما يؤكد على فكرة عدم التمايز بين الشعوب العربية والإسلامية وعدم وجود الحواجز السياسية التي نراها اليوم ، فقد كان الوطن الواحد متسعاً لكل أبنائه وقد كان ذلك معلماً من معالم تاريخهم الإسلامي والحديث .

---

[1] المرجع نفسه ص ٢٠ .

وقد قام الباحث بعدة زيارات علمية متردداً على هذه المدينة الأثرية لرفع تلك النصوص والعكوف على دراستها فتعرف على نحو سبعين اسماً ولقباً لأشخاص من الحجاج والتجار الذي أقاموا في هذا الموقع في مزاراته المتعددة وباستقراء تلك الأسماء والألقاب نستطيع القول بأن أغلبهم ممن يحمله أبناء بلاد المغرب العربي والسودان بقسميه الجنوبي العربي ، والغربي الأفريقي ؛ فمن تلك الأسماء والألقاب المغاربية : الإدريسي، والميموني ، والركابي ، وابن مروان ، والجرجاوي ، وابن سليم ، والسنوسي ، والمغربي ، والعقبي ، والطبري ، والاسحاقي ، والجرباوي ، وغيرها كثير ، ولا يزال الكثير من أبناء مصر من الأصول المغربية يحملون تلك الألقاب حتى يومنا هذا، أما تلك السودانية فهي على الأغلب عبد البري ، والبرهاني، وأبو بهية ، وصليح ، وابن عياد ، والأنصاري، وشهاب الدين ، وعبد النور ، والشوهاي ، وابن سراج ، وغيرها [1].

على أنه يمكن القول بأن هناك كثيراً من الأسماء والألقاب المغربية والسودانية العربية المشتركة والتي لا نستطيع الجزم بالتفرقة بينها نظراً للاختلاط والتمازج الذي كان مألوفاً بين أهالي تلك البلاد العربية والإسلامية ولا يزال .

كما تعرفنا على عشرات النصوص المرتبطة ارتباطاً وثيقاً برحلة الحج السنوية لمرتادي الموقع فقد حرص الحجاج عندما سجلوا نصوصهم على جدران مقابر البجوات على إبراز العديد من المفاهيم الدينية المتأصلة لديهم :

أولاً : تأكيد بعضهم على ذكر المذهب الديني الذي ينتمي إليه الشخص ، وغالباً ما كان المذهب المالكي الذي انتشر في بلاد المغرب والسودان الغربي، مع تسجيل بعض الألقاب المرتبطة بالدين مثل : القاضي ، والفقيه ، والشيخ.

---

[1] زيارات ميدانية للموقع قام بها الباحث على فترات متقطعة خلال الأعوام من ١٩٩٦ – ١٩٩٨م.

ثانياً : حرصهم الواضح على تسجيل لقب الحاج أو الحاج ابن الحاج مما يدل على الاعتزاز الشديد بأداء تلك الفريضة الإسلامية ، وأن هذه الرحلة الشاقة إنما ترتبط بهدف ديني وشعيرة سامية يعتزون بأدائها ، ولذلك عثرنا بداخل العديد من المقابر على نصوص مكتوبة تقول " الحج إلي بيت الله الحرام " ، " وزيارة قبر النبي عليه السلام " ، "والحج وزيارة محمد عليه السلام " ، " والتوبة والزيارة إلي قبر الرسول" (صلى الله عليه وسلم) .

ثالثاً : من خلال دراسة تلك النصوص اتضح أن الوافدين من أولئك الحجاج جاءوا فرادى وجماعات ، وأن بعضهم آثر الصحبة والرفقة خلال هذه الرحلة السنوية الميمونة ، وشملت تلك الرفقة بعض الأبناء لوالديهم أو الأخوة أو الأصدقاء ، أو الزوجات .

رابعاً : قام مرتادو الموقع من الحجاج بتسجيل بعض العبارات من الأدعية الدينية وشهادة التوحيد ، والمواعظ التي تؤكد على المعتقدات الدينية لديهم ، مع طلب العفو والمغفرة من المولى سبحانه وتعالى ، والدعاء للوالدين ولجميع المسلمين .

ويتضح من دراسة هذه النصوص والأدعية عمق المفهوم الديني لدى هؤلاء الحجاج والمرتحلين، وأن تسجيلات بعضهم توحي أنهم من الفقهاء أو الدعاة .

خامساً : التأكيد على إثبات التواجد والحضور إلي هذه الاستراحة التي اعتادوا على الإقامة بها لعدة أيام بغرض الراحة لمواصلة المسير والرحلة ، ووصفهم للمكان بـ (المبارك) مع حرصهم على تأريخ تواجدهم بالتقويم الهجري دون الميلادي وهو ما كان معتاداً العمل به خلال العصر الإسلامي والعثماني إلى أن تم احتلال بريطانيا لمصر عندما بدأ التقويم الميلادي يأخذ مكانه جنباً إلي جنب مع التاريخ الهجري .

سادساً : تسجيل بعض الحكم ، والأقوال المأثورة ، والأشعار ومنها الشعر الغزلي مما يدل على أن تلك الأشعار الغزلية – على الأغلب – لم تكن من كتابات الحجاج، ومن المعتقد أنها لبعض التجار المترددين على الموقع [١]

سابعاً : حرص رواد الموقع على تسجيل بعض الحوادث التاريخية منها ما جري في الربع الأخير من القرن الخامس عشر في أواخر العصر المملوكي ومنها ما جري خلال العصر العثماني خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي ، ومن ذلك تسجيل الحجاج من المترددين على الموقع حادث الزلزال المروع الذي تعرضت له الديار المصرية من شمالها إلي جنوبها في يوم الخميس ٢٣ ذي الحجة سنة ٧٠٢ هـ/٨ أغسطس١٣٠٣م. [٢] وكان من آثاره تهدم فنار الإسكندرية القديم أحد عجائب الدنيا السبع القديمة وكذلك قيام ممثلي الحكومة من رجال الأوجاقات وعمالها وكشافها في مهام رسمية للواحات والتردد على الموقع خلال القرن السابع عشر والثامن عشر الميلادي ، وأنهم ربما استخدموا تلك المقابر لإقامتهم بدلاً من الخيام التي لا تحميهم من عوادي الصحراء وتقلبات مناخها وفضلوا هذا الموقع الصحي الرابض على ذلك المرتفع البعيد عن الحقول والمستنقعات في تلك الغرف النظيفة المفروشة أرضيتها بالرمال والمكسوة جدرانها بالملاط ، والآمنة من هجمات الحيوانات البرية إلي حد كبير [٣] .

وقد خلصنا من دراسة نصوص الحجاج والتجار بمحطة استراحة البجوات التي استقبلت تلك الوفود بأعداد كبيرة من مختلف بلدان المغرب العربي والسودان

---

[١] الأسلوب في تلك الأبيات أقرب إلى الموشحات الأندلسية التي كانت تمزج بين العامية والفصحى، كما أن لها أوزاناً تخرج عن العروض الخليلي ، وهو يدل على أن كاتبها إما أن يكون مغربياً أو أندلسياً .

[٢] حجاج إبراهيم محمد مرجع سابق ص ٣.

[٣] أحمد فخري : مصدر سابق ، ص ص ١٤٦ – ٢٥٥ .

الجنوبي والغربي إلى أن بعض الرواد كنَّ من النساء اللائي رافقن ذويهن في رحلتهم المقدسة ؛ تلك الشعيرة التي لا بد للمرأة فيها من محرم مرافق لها ، ولم يجد هاتيك النسوة غضاضة في أن يسجلن أسمائهن على جدران مقابر تلك المحطة الهامة في طريق الحج .

كما أن بعض الحجاج قد سجلوا أسماءهم في أحد أعوام الحج في مقبرة وفي عام آخر في مقبرة أخرى ؛ مما يدل على تكرار رحلة الحج لأكثر من مرة في العمر وفي نفس الطريق ، ومن الجدير بالقول أن خطوط تلك التسجيلات والمخربشات كتبت بالخط العربي بالشكل المغربي الذي يجمع بين خط الرقعة والنسخ، وكلمات هذا النوع من الكتابة تخلو أحياناً من النقاط العلوية أو السفلية ، وهي تماثل تماماً الأشكال التي كتبت بها الوثائق المغربية في مصر ولاحظنا أن بعض الكتابات تمت باستخدام الحفر على طبقة الملاط على الجدران (خربشات) بشكل سطحي بواسطة أداة حديدية مدببة ، والبعض الآخر كتب باستخدام أقلام بدائية بغمسها في أحبار سوداء أو حمراء .

كما أن أغلب النصوص لم تغفل تسجيل اليوم والشهر والسنة الهجرية ، وشملت جميعها تقريباً كل شهور السنة ، ولم نجد تاريخاً بالسنة الميلادية أو القبطية، وذلك أمر منطقي عند هؤلاء الحجاج وفي تلك الفترة الزمنية .

ومن الجدير بالذكر أننا وجدنا بعض الكتابات التي يستخدمها المشعوذون والعرافون والمنجمون ؛ وهي خليط من الحروف والأرقام والكلمات غير المفهومة لدى القارئ للنص ، فقد عرف عن بعض المغاربة قراءتهم للكف والتنجيم وأعمال الكي بالنار كوسيلة من وسائل العلاج ولا يزالون يزاولونها حتى اليوم أثناء الاحتفالات بموالد الأولياء في أنحاء مصر ، ومما هو جدير بالذكر أن الكثير من الحجاج المغاربة كانوا يفضلون حين عودتهم من رحلة الحج وانفصالهم عن

قوافلهم الإقامة في مصر لفترات قد تطول بغرض التجارة والاستزادة من العلم في الأزهر والمدارس الدينية المختلفة في أنحاء البلاد [1] .

كما أن بعض حجاج غرب أفريقيا من بلاد دارفور كانوا ينضمون لقافلة محمل الحج المصري بالقاهرة أما حجاج بلاد التكرور من أقصى غرب أفريقيا [2] .

فقد كان بعضهم يأتي عن طريق درب الأربعين مخترقين بلاد دارفور ، والبعض الآخر يفد إلي مصر عن طريق وادي النيل مخترقين دنقله حيث يؤدون فريضة الحج مع قافلة المحمل [3] أو يغادرون الأراضي المصرية عن طريق صحراء عيذاب حتى القصير مع قافلة الحج الوافدة عبر درب الأربعين وأسيوط ، ولذلك كانت قافلة الحج المصري تحتوي على عدد كبير من الحجاج زاد على مائة ألف حاج في القرن السابع عشر ؛ من بينهم حجاج بلاد المغرب والتكرور والسودان الذين وفد عدد كبير منهم عن طريق صحراء درب الأربعين وعبر وادي النيل ؛ أولئك الذين فضل بعضهم الالتحام مع المحمل المصري والخروج من القاهرة في أواخر شهر شوال، وآثر البعض الآخر الاتجاه جنوباً نحو قوص وعيذاب أو القصير قاصدين ميناء ينبع على شاطئ بلاد الحجاز باعتباره أقرب الموانى لمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(1) من هؤلاء العلماء الذين آثروا البقاء في مصر الشيخ مرتضى الزبيدي(محمد بن عبد الرازق) ١١٤٥ هـ - ١٢٠٥هـ / ١٧٣٢م - ١٧٩١م . ومنهم من توفي أثناء الرحلة ودفن في صحراء عيذاب قريباً من البحر الأحمر مثل: أبو الحسن الشاذلي.

(٢) سميرة فهمي علي عمر : مرجع سابق ، ص ٢١٤ .

(3) المرجع نفسه ، والصفحة .

ثالثاً : إقليم أسيوط محطة هامة على طريق درب الأربعين

أسيوط مدينة تجارية هامة منذ أيام قدماء المصريين [1] وقد ساعد موقعها المتوسط فيما بين شمال مصر وجنوبها ، وارتباطها بصحراء مصر الغربية المتصلة بصحراوات جنوب بلدان المغرب العربي والسودان من ناحية وبالصحراء الشرقية والبحر الأحمر؛ همزة الوصل مع بلاد الحجاز من ناحية أخرى على احتلالها مركزاً تجارياً هاماً بالنسبة للتجارة المحلية مع المدن المجاورة وسكان الواحات أو التجارة الدولية التي تقوم على تبادل السلع من البلدان العربية من خلال درب الحاج المصري الذي كان يمر على أسيوط خلال العصور الإسلامية المختلفة ثم العصر العثماني مما زاد من أهمية المدينة حيث كان الحجاج المسلمون يمرون عليها في طريقهم إلي الأراضي الحجازية بغية الحج إذ كانت هذه الفريضة ولا تزال نعمة كبرى على العالم الإسلامي ، فلولا الحج وانتظام أوقاته لما عمرت طرق البلدان الإسلامية بالقوافل والتجار ؛ لأن كل بلد من بلاد الإسلام كان يرتب شئون تجارته بحسب موقعه من الأراضي المقدسة ، فأهل الأندلس والمغرب الأقصى كانوا يخرجون للحج في قوافل ضخمة قبل الموسم بسنة ونصف على الأقل ، وكانوا يحملون معهم محصولات بلادهم المرغوبة في بلاد أخرى كمصر وبلاد الحجاز يبيعون ويشترون،ولذلك كانت ركبان الحجيج من عوامل الازدهار الاقتصادي في مصر وبلاد شبه الجزيرة العربية، حيث عملت على رخاء البلدان الواقعة على طريق الحجاج في الخارجة وأسيوط ودرب العلاقي وعيذاب والقصير

---

[1] أسيوط أو أُسيوط أو إسيوط غلب عليها النطق العربي سُيوط وكان اسمها الفرعوني " سأوت" Siout أي مدينة (الحدود) وأطلق عليها الإغريق (ليكوبو ليس) Lycopolis أي مدينة الذئب " وب واوات " وهو معبود الإقليم بمعنى " فتاح الطريق " حيث كان الذئب معبود الإقليم الثالث عشر الذي كانت عاصمته " سا أوت " . محمد عبد الحميد الحناوي:أسيوط في العصر العثماني١٥١٧– ١٧٩٨، أسيوط،مطبعة الهلال١٩٩٦،ص ص ٤ – ٥ .

على البحر الأحمر [١] .

وقد أطنب المؤرخون والرحالة والجغرافيون المسلمون الذين زاروا مصر في وصف أحوال مدينة أسيوط والحياة الاقتصادية ،والاجتماعية ،والدينية المزدهرة فيها، إذ فاقت مثيلاتها من المدن المصرية وسبقتها في هذا المضمار ، وقد عرفت بأنها أحد المراكز الصناعية الهامة في صعيد مصر لموقعها المتميز الفريد [٢] كآخر محطة على طريق درب الأربعين واقعة على نهر النيل،وكانت المدينة مركزاً للعديد من الحرف والصناعات وخاصة صناعة النسيج والسجاد ، والصباغة، والفخار والجلود ، والعاج ، والزجاج ، بالإضافة إلي بعض الصناعات التي اعتمدت على المنتجات الزراعية المتوفرة بالإقليم مثل صناعة السكر ، والزيوت ، والنبيذ ، والأفيون،[٣] واشتهرت أسيوط بصناعة الفرش القرمز ؛وهي صناعة هامة ارتبطت بصناعة النسيج التي ازدهرت وارتبطت بصباغة الأقمشة الصوفية والكتانية،والقطنية باللون الأزرق باستخدام صبغة النيلة التي اعتمدت علي نبات النيلة الذي كثرت زراعته في أراضي الإقليم[٤] واشتهرت بالنسيج القباطي أو

---

(١) راجع : محمد رمزي:القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلي سنة ١٩٤٥ ، ج ٤ ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٣ – ١٩٩٤ م ، ص ص ٣– ٨٥،حسين مؤنس(دكتور) : أطلس تاريخ الإسلام ، القاهرة ، الزهراء للإعلام العربي ،١٩٨٧، ص ص٣٨٣ – ٣٩٦ .

وكذلك مؤلفنا : أسيوط في العصر العثماني ، ص ص ٨ ، ٧٩ .

(٢) محمد عبد الحميد الحناوي : مرجع سابق ، ص ٧٩

(٣) المرجع نفسه والصفحات

(٤) عاصم محمد رزق عبد الرحمن (دكتور) : مراكز الصناعة في مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى مجيئ الحملة الفرنسية ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ ، ص ص ٢٥٠ – ٢٥١ .

القبطي الذي يصدر إلي بيزنطة وروما [1] وإلي بلاد الحجاز والشام عن طريق الحجاج المارين بالمدينة حيث كانت تمثل مركز اتصال هام ما بين التجارة القادمة من شبه الجزيرة العربية عن طريق ميناء عيذاب أو القصير على البحر الأحمر، والتجارة الأفريقية سواءً القادمة من دار فور وسنار وكردفان أو من شمال غرب أفريقية [2]. ويبدو أن أهمية موقع أسيوط وارتباطه بطريق الحجاج والتجارة الخارجية لمصر بين المشرق والمغرب الإسلامي قديمة .

كذلك أشار الكثير من الرحالة الذين زاروا المدينة في العصر الإسلامي إلي الصوف الدقيق الذي ينسجه أهل أسيوط وعرف بالصوف المصري والذي لم يكن له نظير في العالم ويصدر إلي بلاد العجم [3] بواسطة أولئك التجار المرتادون للمدينة ومن خلال قوافلهم وأغلبهم من الحجاج القادمين من البلاد الأفريقية .

كما قصد أسيوط الرحالة العربي الأندلسي ابن جبير في رحلاته للحج عن طريق درب الحاج المصري المار بالمدينة والمعروف بدرب الأربعين، وقد ترك وصفاً دقيقاً لزيارته لها ، ونشاطها الاقتصادي الملحوظ مما أعطى لها أهمية خاصة لدى قوافل الحج ، وقد وصل ابن جبير مع الحجاج الأفارقة إلي عيذاب أو القصير بطريق الصحراء ، حيث قال عن هذا الميناء الذي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بأسيوط وبحجاج درب الأربعين أنه " .... من أعظم الثغور شأناً "، كما انتظر الرحالة الأندلسي أن تنقله مراكب الحجاج إلي الأراضي الحجازية مع قافلة الحج المغربي بعد مغادرته لأسيوط [4] .

---

(١) المرجع نفسه والصفحات .

(٢) محمد عبد الحميد الحناوي : مرجع سابق ، ص ٨٩ .

(٣) عاصم محمد رزق : مرجع سابق ، ص ص ٢٤٩ – ٢٥١

(٤) ابن جبير : كتاب رحلة ابن جبير في مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية ، تحقيق الدكتور حسين نصار ، القاهرة مكتبة مصر ، ١٩٥٥ ، ص ص ٣١ – ٤٨ ، ٣٦٥ .

كما جاء ابن بطوطة الرحالة المغربي الشهير إلي أسيوط وهو في طريقة للحج عبر درب الحج المصري ذاكراً إياها بأنها .... مدينة رفيعة ،وأسواقها بديعة....[١] وأشار بن بطوطة إلي أهمية أسيوط الاقتصادية والاجتماعية والعلمية وموقعها على طريق درب الحاج المصري وقد ظلت أسواق المدينة تؤدي دورها لخدمة مرتادي درب الأربعين طوال العصرين المملوكي والعثماني وحتى بداية القرن العشرين باقتدار ؛ فقد حوت الوكالات المتسعة [٢] التي يأوي إليها التجار والحجاج الذين كان أغلبهم من المغاربة وأبناء بلاد السودان .

وخلال العصر العثماني كان السوق الكبير بمدينة أسيوط والذي يطلق عليه القيسارية يشتمل على مجموعة من القيساريات الصغيرة أهمها قيسارية محمد كاشف بزدادة ، وتشتمل على نحو عشرين وكالة إلي جانب بعض المباني الدينية الملحقة بها كالجوامع والكتاتيب وغيرها من المنافع العامة كالحمامات ، والأفران ، والمقاهي ، واستخدمت هذه الوكالة في بيع وشراء العبيد السود المجلوبين مع القوافل التجارية من البلاد الأفريقية. [٣] وكان من أهم الوكالات التي لعبت دوراً كبيراً في الحياة التجارية بأسيوط في القرن الثاني عشر الهجري(الثامن عشر الميلادي) وكالة حسين الإنكشاري والواقعة على مقربة من الشارع السلطاني الكبير في المدينة [٤] ومن خلال دراستنا لوثائق محكمة أسيوط الشرعية في العصر

---

(١) ابن بطوطة (٧٠٤ – ٧٧٩ هـ / ١٣٠٤ – ١٣٧٧م) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي، نسبة إلي لواتة إحدى قبائل البربر : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت ، دار صادر ١٩٩٢م ، ص ص ٤٧، ٥٠ – ٢٨١،٥٤ – ٢٨٢ .

(٢) وثائق محكمة أسيوط الشرعية ؛ المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة ، وثيقة رقم ١٣٥٣، سادس صفر الخير ١١٠هـ/١٦٩٨م .

(٣) عبد الرؤف علي حسن (دكتور) الحفاظ على المباني التاريخية بمدينة أسيوط، بحث ألقي في مؤتمر (أسيوط – الماضي والحاضر والمستقبل) ، جامعة أسيوط ، ١٩٩٥، ص٣.

(٤) محكمة أسيوط الشرعية ، وثيقة رقم ٦٨٨، ٢١ محرم١١٥٦هـ / ١٧٤٣م .

العثماني استطعنا حصر أعداد كبيرة من مقاهي المدينة نظراً لطبيعة النشاط التجاري وازدهاره فيها وحاجة الأعداد الكبيرة من الغرباء والتجار المترددين عليها أو المقيمين بها من بلاد المغرب العربي ، وبلاد السودان والحبشة ، وشبه الجزيرة العربية إلي مثل هذه المنشآت الخدمية [1] . كما عثرنا على أسماء العديد من الحمامات التي يقع أغلبها في شارع القيسارية الرئيسي والتي لا تزال بقاياها كأثر تاريخي موجودة حتى اليوم .

بذلك أصبحت أسيوط أحد مراكز الانتقال الهامة من غرب وجنوب بلدان شمال أفريقيا من خلال واحات الصحراء الكبرى من ليبيا ،والجزائر، وتشاد، ومالي إلي القصير على البحر الأحمر ومنه إلي بلاد الحجاز سواء بغرض الحج أو ممارسة أعمال التجارة منفردة أو ملازمة لأداء الشعيرة ، ولا عجب إذ تخلف عدد ليس بالقليل من أبناء تلك الأقاليم الأفريقية وتزوج من بناتها بعد أن طاب له العيش بها ، كما حدث مع المغاربة القادمين إلي الإسكندرية عبر الطريق الساحلي .

ولذلك فقد اختلطت العناصر الحامية والسامية القديمة قبل الفتح العربي وبعده في هذه المنطقة من قلب صعيد مصر مع القبائل العربية التي صاحبت الفتح العربي، لتتصهر مع أولئك الوافدين من بلدان المغرب العربي والبلدان الأفريقية غير العربية لتشكل غالبية ذلك الشعب العربي الذي يعيش على أرض أسيوط حتى اليوم ولا تزال الألقاب المغربية والأفريقية تحملها بعض عائلات أسيوط مثل : المغربي، والغرياني، والتونسي ، والمراكشي، والطرابلسي، والقرماني،والزاوي،

---

(١) يمكن الرجوع إلي سجلات محكمة أسيوط ومنفلوط الشرعية المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة ، وعلى سبيل المثال محكمة أسيوط الشرعية ، وثيقة رقم ٥٠٣ ، ١٥ شهر ذي القعدة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠م .

PATON,A . A , AHistory Of The Egyption Revolution, From the period of the MameLukes to the death of Mohammed Ali, London, 1870 , Vol.I.P- 83

والتكروري(من بلاد التكرور أو مالي) وغيرهم ، فاشتروا المنازل في وسط المدينة ، ومارسوا العديد من الحرف التي مهروا في أدائها ، واشتغلوا بتجارة البن المجلوب من اليمن بالسفن عبر البحر الأحمر،وحازوا المحلات والوكالات[1] وهو ما يتوافق مع طبيعة المغاربة وحبهم للعمل التجاري.ولا تزال تعيش في أسيوط حتى اليوم بعض العائلات التي تنتمي في أصولها الأولى إلي عرب بلاد الحجاز ، وبعضهم مارس أعمال التجارة مع بلاد السودان والمغرب العربي [2].

---

[1] محكمة أسيوط الشرعية ، وثيقة رقم ٦٢٧ ، غاية شعبان ١١٥٩ هـ / ١٧٤٦م .

(٢) من هؤلاء آل خشبة الذين يزالون يعيشون في أسيوط حتى اليوم ، وآل الهلالي من برقة في ليبيا، وغيرهم كثيرون :

انظر :عثمان فيض الله : أسيوط ، مطبعة الجهاد ، أسيوط ، ١٩٤٠، ص ص ١٧٨ – ١٧٩.

رابعاً : أهم السلع المتبادلة عبر طريق درب الأربعين

كان التجار من الحجاج القادمين من بلاد المغرب العربي ، والسودان الجنوبي والغربي يفدون محملين ببضائع بلادهم ؛ فيبيعون معظمها في أثناء الرحلة عند توقفهم بالخارجة ، وأسيوط ، وكانت منسوجات أسيوط الصوفية والكتانية المصبوغة من أهم ما يحمله التجار معهم سواء في رحلة الذهاب نحو بلاد الحجاز أو في رحلة عودتهم إلي بلادهم .

وكان حجاج المغاربة يجيئون ومعهم العديد من منتجات بلادهم ؛ فيأتي من تونس الكثير من السلع مثل زيت الزيتون ، والطرابيش ، والشيلان الصوفية البيضاء، والنعال المصنوعة من جلد السختيان ، ومعاطف مزودة بغطاء الرأس تسمى " البرنس " وأغطية من الصوف والطرابيش الحمراء ، والعسل ، والزبد ، والشمع يبيعون بعضها في الطريق وعلى الأخص في أسواق أسيوط،وينقل ما تبقى عن طريق البحر إلي الحجاز [1] .

كما أن حجاج غرب أفريقيا من بلدان السودان الغربي كانوا يأتون محملين بالعديد من السلع بما في ذلك العبيد السود ؛ إذ إن حجاج دارفور من بلاد غرب السودان ومالي كانوا يجلبون معهم الريش والصمغ وغيره من منتجات بلادهم وكذلك حجاج بلاد التكرور (مالي والسنغال) كانوا يأتون بسلع ومنتجات بلادهم[2] وأغلبها من الجلود ، والأعشاب الطبية ، والعبيد .

وفي رحلة عودة الحجاج يقومون بشراء العديد من السلع الهندية التي تجلب إلي ينبع ، وجدة ، ومكة بواسطة قوافل الهنود القادمين إلي مكة لغرض الحج والتجارة ، ومن هذه السلع التوابل ، والأقمشة الهندية ، ومنسوجات الموسلين، والحرير المصنع في إنجلترا ، والشيلان الكشمير . وكانت السلع الهندية ذات

---

[1] سميرة فهمي على عمر : مرجع سابق ، ص ص ٢٦١ – ٢٦٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٦٢ .

أهمية كبيرة لهؤلاء الحجاج إذ ينتظرون قدومها ، وربما يتأخرون في الرحيل عن المعتاد بسبب تأخر دخول مراكب الهند وانتظار الحجاج لها لشراء ما بها من أقمشة كما حدث في أعوام ١٧٠٧ ، ١٧٢٨ م [١] .

وقد اعتاد الحجاج المغاربة جلب البضائع السورية ومنها الحرير لبيعها في مصر وفي بلادهم ، بالإضافة إلي المنتجات المصرية التي يحملونها معهم ومنها الأقمشة الكتانية من صنع أسيوط ومنفلوط ، والأقمشة القطنية من صنع القاهرة ، وكميات من الفلفل ، وملح النوشادر ، والبخور ، وطيب الزباد،وصمغ الصنوبر[٢] .

القوافل الأفريقية :

على الرغم من التدهور الذي أصاب الاقتصاد المصري في أواخر العصر العثماني وبخاصة في الفترة التي سبقت مجيء الحملة الفرنسية للبلاد مع نهاية القرن الثامن عشر نتيجة لسياسة حكام البلاد الفعليين من أمراء المماليك إبان حكم مراد بك وإبراهيم بك ؛ إلا أن تجارة مصر الخارجية وبخاصة مع البلدان الأفريقية ظلت مستمرة إن لم تكن مزدهرة من خلال القوافل القادمة من تلك البلاد ؛ إذ كانت مصر محط الرحال للتجار والقوافل القادمة من دارفور ، وسنار ، وكردفان من بلاد السودان ، ومن شبه الجزيرة العربية وبعض بلاد آسيا عن طريق موانيها البحرية وأهمها على البحر الأحمر في جنوب البلاد مينائي عيذاب والقصير ، وكذا القوافل القادمة من بلاد المغرب العربي بوحداته السياسية الحالية طرابلس ، وتونس، والجزائر ، والمغرب بأقاليمه الدانية والقاصية حتى ساحل الأطلنطي ، وبلاد السودان الغربي ؛ مالي ، وموريتانيا ، والسنغال .

ولذلك فإنه برغم المحن والأزمات السياسية والاقتصادية التي عاشتها مصر على فترات متقطعة إبان العصر العثماني ؛ إلا أنها لم تعرف ما يقوله أهل

---

[١] المرجع نفسه ، ص ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(٢) جلال يحي (دكتور) : مصر الحديثة ، الإسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٨٠ ، ص ٥١

الاقتصاد المحدثين من العجز التجاري الذي كان دائماً في صالحها من خلال علاقاتها التجارية مع البلاد الأوربية والآسيوية ؛ حيث لم تكن تدفع أموالاً مقابل ما تستورده من أوروبا نظراً للفائض الكبير الذي كانت تمتلكه من منتجات زراعية وصناعية ، ولهذا فقد كانت مصر دائماً تدفع ثمن ما تستورده بضائع فقط تحتاجها الدول الأوربية ؛ في حين أن أوروبا كانت دائماً في حاجة إلي تلك البضائع المصرية ، أو تلك المستوردة عن طريق مصر من البلدان الأفريقية مثل : السنامكي ، والصمغ ، والعقاقير الطبية المستخلصة من الأعشاب ، والعاج ، والأبنوس [1] .

كما ساهمت الأقاليم والمدن المصرية المختلفة في تجارة مصر الداخلية مساهمة فعالة ؛ وقامت بدور كبير في النشاط التجاري الخارجي بتصدير العديد من المنتجات الزراعية والصناعية المصرية عن طريق موانيها البحرية وكان جمرك القصير أحد الجمارك الهامة التي لعبت دوراً ملحوظاً مع شبه الجزيرة العربية في تنمية هذا النشاط [2] .

وقد شارك إقليم أسيوط مشاركة فعالة مع أقاليم صعيد مصر في تجارة البلاد المصرية الداخلية والخارجية لعدة عوامل أهمها :

أولاً : مساهمة حاصلاته الزراعية ومنتجاته الصناعية التي تعتمد على هذه الحاصلات بدور هام في ذلك النشاط الداخلي والخارجي .

ثانياً : وقوعه في طريق أهم قافلتين تجاريتين تمران بمصر من جنوبها إلي شمالها وهما قافلتا دارفور وسنار .

ثالثاً : وقوعه أيضاً في طريق تجارة أبناء بلاد المغرب العربي والسودان الجنوبي

---

(1) Déscription de L' Egypte,T.X V III I er part . pp . 274 – 275 .

(٢) جرجي زيدان:مصر العثمانية:تحقيق د.محمد حرب ، القاهرة ، دار الهلال ،١٩٩٤ ، ص ٢٩٧ .

والغربي عبر درب الأربعين سواء بمرورهم لغرض التجارة أو الحج أو الاثنين معاً من خلال ميناء القصير الذي كان ميناء نشطاً في العصر العثماني ؛ وما يستتبع مرور قوافل الحج من نشاط تجاري في رحلتي الذهاب والإياب وتحديداً في مدينة أسيوط باعتبارها النهاية الطبيعية لدرب الأربعين على وادي النيل ، حتى أن بعض الحجاج والتجار المغاربة استهوتهم الحياة بأسيوط فاستقربهم المقام فيها وفي غيرها من مدن الصعيد مثل قنا ،وجرجا ،وأصبحوا بمرور الوقت جزءاً لا يتجزأ من نسيج مجتمعات تلك المدن ؛ وتنتمي كثير من العائلات في صعيد مصر إلي الأصول العربية المغربية مثل : الجبالي ، وسالم ، والفاسي ، والطرابلسي ، والهنداوي ، والهواري ، والجعفري ... وغيرهم كثير [1] .

وكانت قافلة دارفور القادمة من غرب السودان من أهم القوافل الأفريقية القادمة إلى مصر عبر درب الأربعين [2] حيث تجلب معها : العاج ،والتمر هندي، والقرب المصنوعة من جلد الجمال ، وبعض جلود النمور ، والصمغ،وسن الفيل. وكانت هذه القافلة إلي جانب قوافل سنار والنوبة تجلب المواد الثمينة من المعادن وأهمها تراب الذهب(التبر) لزوم صناعة النقود والذهب والحلي وغيرها،والمسك ، والأبنوس،والعنبر،وريش النعام، والششم [3] ، والكرابيج،وملح النطرون،والشبة ،

---

[1] محمد محمود زيتون : إقليم البحيرة ، صفحات مجيدة من الحضارة والثقافة والكفاح ، القاهرة، ١٩٦٢ : ص ص ٢٨٩ – ٢٩١ .

(٢) عرف هذا الدرب الصحراوي بـ " درب الأربعين" لأن القوافل كانت تستغرق في مسيرها من الفاشر عاصمة دارفور نحو أربعين يوماً وليلة حتى وصولها إلي أسيوط على نهر النيل لمسافة نحو ألفي كيلومتر .

(٣) الششم هو بذرة صغيرة مائلة إلي السواد تطحن وتستخدم ظاهرياً في حالات الرمد الذي يصيب العين ؛ وكان ينتشر بصورة واضحة في فصل الصيف في مصر وبخاصة في قراها وصعيده:

Déscription de L' Egypte, T.XV II Ier part .pp. 279 – 293

على أن أهم ما كانت تأتي به هذه القافلة لمصر تلك المجموعات الكبيرة من العبيد السود المجلوبين بواسطة الجلابة من البلاد الأفريقية الشرقية ، وأغلبهم من الأطفال من الجنسين الذين اختطف بعضهم من قرى مملكة دارفور بواسطة أناس محترفين لهذا العمل ،وبعضهم الآخر من أسرى الحروب الأهلية ممن وقعوا في الرق ، والبعض الثالث يتولى تجار دارفور شراءهم من القوافل الأفريقية الأخرى الحبيسة التي كونت ثرواتها من هذه التجارة مع الممالك الأفريقية المجاورة في وسط القارة.

ولما كانت مدينة الفاشر عاصمة مملكة دارفور تبعد عن أسيوط بمسيرة أربعين يوماً ؛ فإن هذه القافلة تحط رحالها إلي جوار مصادر المياه لتأخذ قسطاً من الراحة وتواصل سيرها في اتجاه وادي النيل حيث كانت أهم محطاتها خلال الرحلة عند واحة الخارجة قبل أن تصل إلي أسيوط بمسيرة ستة أيام ، وفي هذه المحطة يقوم كاشف (حاكم) الواحات بتقدير الرسوم التي يجب عليها سدادها؛ بينما يقوم رئيس القافلة بتقدير نصيب كل تاجر فيما يدفعه من رسوم . ولم يكن يسمح للقافلة بالتقدم في اتجاه أسيوط حتى تقوم بسداد ما عليها في محطة أو قرية بيريس (باريس) [1] ، أي أن القافلة تدفع رسوماً مرتين قبل أن تصل لأسيوط وفي هذه الحالة تقوم القافلة ببيع كمية من بضائعها تكفي لسداد هذه الرسوم .

وعلى أي حال لم يكن ليسمح للقافلة بعد بلوغها أسيوط بمواصلة سيرها سواء للشمال أو للجنوب في اتجاه قنا ثم القصير ؛ إلا بعد تكون قد سددت رسوماً أخرى وهي عبارة عن أربعة زر محبوب [2] عن كل رأس من العبيد ، اثنتان من

---

[1] تقع قرية بيريس أو باريس جنوب غرب الخارجة قبل الوصول إلي البجوات وهي من أهم قرى واحة الخارجة ، وتبعد عن أسيوط بمسيرة اثنى عشر يوماً.
Déscription de L' Egypte, T. X V II Ier part . pp . 265 .

(٢) الزر محبوب عملة استخدمت في مصر في العصر العثماني ويساوي ١٢٠ مديني أو نصف قرش ، وكان الزر محبوب يساوي ١٨٠ بارة عند مجيء الحملة الفرنسية إلي مصر .

عملة سكين Squin [1] عن كل رأس من الجمال إلي جانب ما يقوم بتحصيله الكاشف لنفسه من رسوم قدرها تسعة مديني [2] عن كل عبد ، وأربعة مديني عن كل جمل.

وهذه الرسوم لا تعفي القافلة من تقديم بعض الهدايا لكاشف المنطقة باسم ملك دارفور ؛ وهي غالباً ما تكون عبدين ، وجملين . وعند عودة القافلة يتلقى رئيسها من حاكم (كاشف) ولاية أسيوط هدية مماثلة عبارة عن " طقم " كامل من الملابس الثمينة من إنتاج الإقليم [3] . وكان مجموع العبيد المجلوبين مع تجار القافلة هائلاً ، فكان يرد إلي مصر سنوياً من خمسة إلي ستة آلاف من الجنسين لشدة الحاجة إليهم وزيادة الطلب عليهم ، ويشكل الإناث منهم أربعة أخماس العدد، وأغلب هؤلاء العبيد في سن الطفولة ؛ تتراوح أعمارهم ما بين خمسة أو سبعة أعوام؛ القليل منهم في سن الثلاثين وحتى الأربعين عاماً . ويبلغ عدد التجار ومن يعملون تحت إمرتهم كالجمالين والخدم نحو أربعمائة أو خمسمائة شخص .

وهذه القافلة كانت تضم بعض الحجاج الذين يتوجهون إلي الجنوب حيث قنا ثم عيذاب والقصير وبعد أن يكونوا قد تخلصوا مما لديهم من أحمال وبضائع وجمال أما التجار غير القاصدين للحج فإنهم يستريحون لبعض الوقت بداخل أسيوط ووكالاتها المتعددة بداخل المدينة ، أو يستريحون في بني عدي أو منفلوط شمال أسيوط بقليل حيث تبيع جزءاً من تجارتها خاصة العبيد للتخلص منهم بثمن يصل

---

(١) السكين Squin عملة ذهبية استخدمت في البندقية بإيطاليا وكان متداولة في الأسواق المصرية وكانت تساوي ٣٤٠ بارة في أوائل القرن التاسع عشر .

(٢) المديني يساوي واحد على ستين من القرش وقد استخدم بديلاً عن الدرهم منذ العصر الأيوبي وطوال العصر العثماني وحتى نهاية القرن الثامن عشر ، وهو قطعة نقدية صغيرة تزن عيار قدره ٣٥٠من الألف من الفضة الخالصة انظر :

Déscription de L' Egypte, T.XV I , pp. 85 – 68

(3) I bid , P . 265

إلي ٣٥ زر محبوب للعبد الواحد غير الخصي ، والذي يباع بسوق العبيد بأسيوط بثمن مرتفع يصل لنحو ١٥٠ مديني حيث كانت عملية البيع غالباً ما تتم عن طريق المقايضة والأقمشة السيوطية الصوفية والكتانية والقطنية ، ويسمح حاكم المدينة للتجار بمزاولة هذا العمل مقابل ما يدفعونه له [١].

أما العبيد الخصي أو الطواشي فإن ثمن الواحد يتضاعف نتيجة لصلاحيته للعمل في داخل قصور ومنازل الأثرياء واختلاطه بالحريم ، ولذلك كان رؤساء القافلة أحياناً ما يتوجهون لقرية أبي تيج جنوبي مدينة أسيوط حيث يقوم الحلاقون من أقباط تلك البلاد ببتر العضو الجنسي للأطفال الذين لم يتجاوزوا سن الثامنة أو العاشرة لأن المسلمين يحرم عليهم الإسلام القيام بهذا العمل ، ثم تواصل القافلة سيرها شمالاً حيث السوق الرئيسي في مصر لبيع وشراء العبيد في القاهرة وبعض مدن الشمال الأخرى وهي رشيد ، ودمياط ، والإسكندرية [٢].

أما البضائع الأخرى التي تجلبها معها قافلة دارفور فهي : التمر هندي ، والكرابيج ، والنوع الأبيض من ريش النعام وهو أثمن الأنواع ، وقرون الكركدن [٣] التي يصنع منها مقابض السيوف والخناجر ، أما القرب الواردة مع القافلة فتبلغ نحو أربعة آلاف زوج مصنوعة من جلود الثيران أو الجمال . وكعادة القوافل التجارية دائماً فإنها تتخلص من عدد كبير من الجمال المصحوبة معها في رحلة الذهاب والتي بلغت في عام ١٨٠٠ نحو ٢٤ ألف بعير حتى تصل إلي نحو خمس عددها فقط عند رحلة العودة [٣] بعد أن تمتد فترة إقامتها بمصر ستة أو

---

(1) Shaw. Stanford ,J,:Ottoman Egypt in The age Of The French Revolution , Cambridge , 1964 ,P. 136 .

(2) Déscription de L' Egypte, T. XVIII, I er part . pp 274 – 275

(٣) الكركدن حيوان أضخم من الفيل يعيش في الأدغال الأفريقية ويتميز بقرونة القوية الضخمة

(4) Ibid , T. XVIII , pp 277 – 287

يونان لبيب رزق (دكتور):الأهرام ديوان الحياة المعاصرة،صحيفة الأهرام،عدد ٢يونيو ١٩٩٤م

ثمانية أشهر ويكون الحجاج الذين انفصلوا عن القافلة قد عادوا لمصر لمرافقتها في رحلة العودة لبلاد السودان أو الغرب الأفريقي وهم أولئك الذين صاحبوا القافلة للحج فقط، وبعضهم قد أو كل أحد التجار للبيع والشراء نيابة عنه .

وكانت قافلتا دارفور ، وفزان القادمتين عن طريق درب الأربعين وأسيوط، ومثلهما قافلة سنار القادمة عبر صحراوات شرق وادي النيل ينتظرون بالجيزة حتى يؤذن لهم بدخول القاهرة من قبل السلطة العثمانية الحاكمة وبعد أن تدفع لجمرك القاهرة في مصر العتيقة زر محبوب عن كل رأس عبد ،ونصف زر محبوب للإقامة في الوكالة عن كل رأس،والسماح للتاجر باستخدام السوق الذي يعرض فيه بضاعته .

وبعد أن ينتهي تجار قافلة دارفور من بيع بضاعتهم يقومون بشراء احتياجاتهم من أسواق القاهرة المتعددة والتي تتمثل في المنسوجات الحريرية والقطنية والسورية ، والأقمشة الكتانية والقطنية المصنوعة في مدن الدلتا والصعيد أهمها المحلة ، والمنصورة ، وأسيوط ، وأقمشة أخرى تسمى " ألاجة " والموسلين، والشيلان البيضاء الواردة من بلاد الهند عبر شبه الجزيرة العربية، ومعدات الخيول، وملابس الفرسان ، والبن ، والسكر ، والأرز ، والقمح ، والعقاقير الطبية، والحناء وارد بلاد الحجاز ، وبعض البضائع الأوربية كالحلي الزجاجية والخواتم مختلفة الألوان ، وحبوب الكهرمان ، والمرجان ، والجلجل الذي يستخدمه النساء للزينة، والجوخ، والقطيفة ، والأمواس ، والقصدير، والرصاص،والنحاس،والبنادق، والمسدسات ، والسيوف ، وبارود البنادق [1].

كما تحمل القافلة معها من أسيوط من تلك الأقمشة الكتانية التي اشتهرت بها المدينة من خمسة إلي ستة آلاف قطعة وكميات كبيرة من اللباد الصوفي متفاوت

---

[1] Ibid , PP . 284 – 287 , T . X VII . P . 277 .

السمك الذي يستخدم كسروج للخيول ، بالإضافة إلي بعض المنتجات الآسيوية وخاصة ما يرد من الهند برفقة الحجاج ويباع بأسواق مصر مثل الأقمشة الحريرية، والموسلين ، ونبات اللاوندة ، والسمبال ، وهي نباتات تستخدم في صنع أدوات التجميل وتثبيت الشعر بعد خلطه بالزيت [١] .

أما السلع التي كانت ترد مع الحجاج لاستخداماتهم الشخصية فإنها تعفي من رسوم دخول البلاد ولا تخضع للتفتيش الجمركي في موانئ وثغور البلاد كالإسكندرية والقصير وغيرها [٢] ؛ وكذلك الأمر مع الحجاج من غير التجار القادمين عبر الصحراء .

وكان التجار الحجاج يبدأون ببيع بضائع بلادهم ويبيعون معظمها أثناء رحلتهم [٣] ، وهي غالباً من السلع الجافة ، والزيتون ، والبلح المكبوس(العجوة)، والشمع [٤] . ويعودون محملين بالبضائع والسلع المشتراه من أسواق مكة والمدينة وعلى رأسها المنسوجات الحريرية ، والتوابل ، والبن الذي كان يزرع في بلاد اليمن[٥]، والبضائع الواردة من بلاد الهند وعلى رأسها الأقمشة والبهارات .

وفي الخاتمة نستطيع القول بأن درب الأربعين لعب دوراً هاماً في الحياة السياسية،والاقتصادية ،والاجتماعية ،والثقافية لمصر إبان العصر العثماني أهمها:

- **الآثار السياسية** :

لم يظهر التمايز السياسي الواضح بين الأقاليم العربية خلال العصر العثماني، فلم تكن هناك حدود سياسية فاصلة بين البلدان العربية والإسلامية

([1]) Ibid , . T . X VII . PP .277 – 291 .

(٢) هاملتون جب ، هارولد بوون : مرجع سابق ج ٢ ، ص ١٤٩ .

([3])Déscrption de L' Egypte , T. X V II , PP . 298 – 299 .

(٤) سميرة فهمي على عمر : مرجع سابق ، ص ص ٢٦٢ – ٢٦٣ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ٢٦٤ .

التي خضع أغلبها للسيادة العثمانية ، إذ كان درب الأربعين يمثل همزة الوصل بين مصر وبلدان المغرب العربي وبلدان غرب أفريقيا ، وكان كاشفا الواحات وأسيوط يتوليان حماية وتيسير مجيء القوافل وخروجها من مصر دون عوائق وتأمين وجودها وعدم التعرض لها .

- **الآثار الاقتصادية** :

لعب الدرب دوراً هاماً في عملية التبادل التجاري بين مصر وتلك البلدان من خلال قوافل الحجاج والتجار القادمين ومعهم سلع المناطق المغربية والأفريقية ، وخروجهم ، بالسلع والمنتجات المصرية والآسيوية الوافدة من بلاد شبه الجزيرة العربية أو تلك الواردة من بلاد الهند والبلاد الآسيوية الأخرى ، مما ساعد على انتعاش الحياة الاقتصادية في إقليم أسيوط وصعيد مصر، بما له من انعكاسات إيجابية على حياة بلاد الحجاز الاقتصادية آنذاك. كما أنهم شكلوا رافداً أساسياً من روافد قافلة الحج المصري التي تخرج من مصر تحت راية أمير الحج حاملة الكسوة الشريفة للكعبة ، والصرة السنوية لصالح فقراء الحرمين .

- **الآثار الاجتماعية** :

استقرار الكثير من الحجاج المغاربة وغيرهم من الحجاج الأفارقة في الإقليم ولا يزال أثرهم باقياً حتى اليوم في أسيوط والواحات مما أدى إلي الاختلاط والمصاهرة والإقامة ، وبعضهم آثر الجوار والإقامة بصفة دائمة بمكة والمدينة ، وهكذا كان كل عام من أعوام الحج عاملاً من عوامل الامتزاج والاختلاط والتآلف وانصهار الشعوب العربية والإسلامية وتقارب العادات والتقاليد والأفكار .

- **الآثار الثقافية** :

كان الحج أحد الوسائل المهمة في عملية التقارب الثقافي والفكري وتبادل الآراء والأفكار بين الوافدين من البلاد العربية والأفريقية وأهل مصر وبلاد الحجاز ، فقد لاحظنا على جدران مقابر الواحات تسجيلات لأسماء بعض القضاة ، والفقهاء ، والشيوخ من الوافدين مع قافلة حجاج دارفور وبلاد المغرب ، وتسجيل بعض أفكارهم وأشعارهم مما يدل على أن الحجاج كانوا من مختلف فئات المجتمع الوافدين منه .

- **الآثار المادية** :

استفاد إقليم الواحات وأسيوط والصعيد عموماً من الرسوم التي كانت تحصل من خلال كاشفيها لصالح الإدارة العثمانية ومن خلال التبادل التجاري من أهل الإقليم بما نتج عنه من رواج اقتصادي ، بالإضافة إلي أن قوافل الحجاج ساهمت في نشاط قافلة الحج المصري الرئيسة ومثلوا رافداً هاماً من روافدها .

المصادر والمراجع

أولا : القرآن الكريم :

- سورة النحل (الآية ١٦) ، سورة الملك (الآية ١٥) .

ثانيا : وثائق غير منشورة :

١- وثائق محكمة أسيوط الشرعية ؛ المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة .

ثالثا : وثائق منشورة :

دور الجالية المغربية في تاريخ مصر العثمانية ، تونس ، المجلة التاريخية المغربية ، العـــدد(٩) ، يوليو ١٩٧٧ .

رابعا : مصادر عربية منشورة :

١- ابن بطوطة ؛ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي : تحفة النظار في غرائـــب الأمصار وعجائب الأسفار ، بيروت دار صادر ، ١٩٩٢ .

٢- ابن جبير ؛ محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي ؛ كتاب رحلة ابن جبيـــر في مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية ، تحقيق الدكتور حسين نـــصار ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٥٥ .

٣- حجاجي إبراهيم محمد (الدكتور):النصوص العربية في البجـــوات ،الريـــاض ١٩٨٧.

خامساً : أبحاث :

١- عبد الرءوف على حسن (دكتور) : الحفاظ على المباني التاريخيـــة بمدينـــة أسيوط ، مؤتمر (أسيوط – الماضي والحاضر والمستقبل) ، جامعـــة أســـيوط ، ١٩٩٥ .

سادساً : دوريات :

الأهرام ، أعداد ٢٨ أبريل ١٩٣٤ ، ٢ يونيو ١٩٩٤ ، ١٢ أبريل ١٩٩٧ ، ١٩ نوفمبر ٢٠٠٥ م .

سابعاً : زيارات ميدانية :

١- زيارات ميدانية قام بها الباحث لمرتفع ومقابر البجوات على فترات متقطعة خلال الأعوام من ١٩٩٦- ١٩٩٨ م .

٢- زيارة علمية للأثري حسن صبحي لجبال العوينات نشرت نتائجها بصحيفة الأهرام ، عدد ٢٨ أبريل ١٩٣٤.

ثامناً : رحلات :

- محمد رجائي الطحلاوي (دكتور) : رحلة علمية إلي العوينات وهضبة الجلف الكبير على مشارف ليبيا والسودان(من محاضرات الموسم الثقافي ٦٨/ ١٩٦٩)،جامعة أسيوط، ١٩٧٢ .

تاسعاً : مقالات منشورة :

١- على ورور : درب الأربعين ؛ طريق استراتيجي ومحور مهم للتنمية ، صحيفة الأهرام عدد ١٢ أبريل ١٩٩٧ .

٢- يونان لبيب رزق (دكتور) : الأهرام ديوان الحياة المعاصرة (درب الأربعين) ، الأهرام عدد ٢ يونيو ١٩٩٤.

عاشراً : مراجع عربية ومعربة :

١- أحمد فخري (دكتور) : الصحراء المصرية ؛ جبانة البجوات في الواحة الخارجة ، ترجمة عبد الرحمن عبد التواب ، مراجعة د. آمال العمري ، القاهرة ، هيئة الآثار المصرية ، ١٩٩٨.

٢- جرجي زيدان : مصر العثمانية ؛ تحقيق د. محمد حرب ، القاهرة ، دار الهلال، ١٩٩٤ .

٣- جلال يحيي (دكتور) : مصر الحديثة ، الإسكندرية ، منشأة المعارف ،١٩٨٠

٤- حسين مؤنس (دكتور) : أطلس تاريخ الإسلام ، القاهرة ، الزهراء للإعلام العربي ١٩٨٧ .

٥- سليمان حزين (دكتور) : حضارة مصر ارض الكنانة ، القاهرة ، دار الشروق ، ١٩٩١ .

٦- سميرة فهمي علي عمر (دكتور) : إمارة الحج في مصر العثمانية ٩٢٣ – ١٢١٣ هـ ١٥١٧ -١٧٩٨ ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (تاريخ المصريين ٢٠١) ٢٠٠١ م .

٧- عاصم محمد رزق عبد الرحمن (دكتور) ،: مراكز الصناعة في مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى مجيء الحملة الفرنسية ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩ .

٨- عبد العال عبد المنعم محمد الشامي (دكتور) : درب الحاج المصري ، القاهرة ، ١٩٩٨ .

٩- عبد العزيز الشناوي (دكتور) : الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفتري عليها، القاهرة ، مكتبة الأنجلوا المصرية ، جـ ٢ ، ١٩٨٠ .

١٠- عثمان فيض الله : أسيوط ، مطبعة الجهاد بأسيوط ، ١٩٤٠ .

١١- محمد أنيس (دكتور) ، السيد رجب حراز (دكتور) : الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر ، جـ ٢ ، القاهرة ، ١٩٧١ .

١٢ – محمد عبد الحميد الحناوي (دكتور) : أسيوط في العصر العثماني ١٥١٧–١٧٩٨ أسيوط ، مطبعة الهلال ، ١٩٩٦ .

١٣– محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلي سنة ١٩٤٥ ، جـ ٤ ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة لكتاب ١٩٩٣ –١٩٩٤

١٤ – محمد محمود زيتون : إقليم البحيرة ، صفحات مجيدة من الحضارة والثقافة والكفاح ، القاهرة ، ١٩٦٢.

١٥ – هاماتون جب ، هارولد بوون : المجتمع الإسلامي والغرب ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفي ، القاهرة ، جـ ٢ ، ١٩٧١ .

حادي عشر : مصادر ومراجع أجنبية منشورة :

- Déscription de l' Egypte ,paris , panckouke , 1821 .

- PATON , A . A ; A History of The Egyptian Revolution From the period of the Mamelukes to the death of Mohammed Ali , London Vol . I , 1870 .

- Shaw , Stanford , J ; Ottoman Egypt in the age of the French Revolution , Cambridge , 1946 .

الملاحق

الملحق رقم (١)

خريطة توضح خط سير درب الأربعين داخل الأراضي المصرية متجهاً من أقصى جنوب غرب مصر عبر صحراواتها الغربية نحو بني عدي ثم مدينة أسيوط ووادي النيل وممتداً نحو الصحراء الشرقية ثم القصير على البحر الأحمر عبر درب الأسيوطي في الصحراء الشرقية .

المصدر : محمد عبد الحميد الحناوي : أسيوط في العصر العثماني ١٥١٧-١٧٩٨م أسيوط ، دار الهلال ، ١٩٩٦م .

الملحق رقم (٢)

خريطة توضح خط سير درب الحاج المصري خلال العصر الإسلامي والعثماني عن طريق وادي النيل ودرب العلاقي وعيذاب متجهاً نحو الصحراء الشرقية لمصر وحتى البحر الأحمر .

المصدر : سيد عبد المجيد بكر : دروب الحجيج ، سنة ١٤٠١هـ (بتصرف) .

الملحق رقم (٣)

خريطة توضح خط سير قافلة الحج الجنوبية من قنا وقوص عبر الصحراء الشرقية لمصر حتى ميناء عيذاب ثم جده من خلال عبور البحر الأحمر ، أو إلي القصير ومنها إلي ميناء ينبع .

المصدر : سيد عبد المجيد بكر : دروب الحجيج سنة ١٤٠١هـ (بتصرف) .

الملحق رقم (٤)

خريطة توضح خط سير الرحلة العلمية الاستكشافية التي قام بها قسم التعدين بكلية الهندسة بجامعة أسيوط عام ١٩٦٩م بالتعاون مع مؤسسة الأبحاث الجيولوجية والتعدين ، وهيئة تعمير الصحاري ، ومؤسسة الطاقة

الذرية ، ومحافظة الوادي الجديد ، لاستكشاف درب الأربعين وطرق ودروب الصحراء الغربية التي تربط مصر بالدولة الأفريقية المجاورة (بتصرف).

المصدر : د. محمد رجائي الطحلاوي : رحلة علمية إلي العوينات وهضبة الجلف الكبير

على مشارف ليبيا والسودان،من محاضرات الموسم الثقافي لجامعة أسيوط ١٩٦٩/٦٨.

الملحق رقم (٥)

خط سير بعثة صحيفة الأهرام لارتياد طريق درب الأربعين في أوائل شهر مارس عام ١٩٣٤م بدءاً من أسيوط وحتى منطقة العوينات عند التقاء الحدود المصرية – الليبية – السودانية .

المصدر : صحيفة الأهرام : عدد ٢٨ أبريل ١٩٣٤م .

الملحق رقم (٦)

منظر خارجي لمدينة الموتى بالبجوات .

المصدر : زيارة ميدانية لمقابر البجوات بواحة الخارجة ١٩٩٦ – ١٩٩٨م .

الملحق رقم (٧)

منظر خارجي للعديد من مقابر البجوات (مدينة الموتى)

كل شئ يهون إلا الصدود وفراقك عليَّ صعب شديد بعض من شعر التجار

المصدر : زيارة ميدانية لمقابر البجوات بواحة الخارجة ١٩٩٦ – ١٩٩٨م .

ملحق رقم (١)

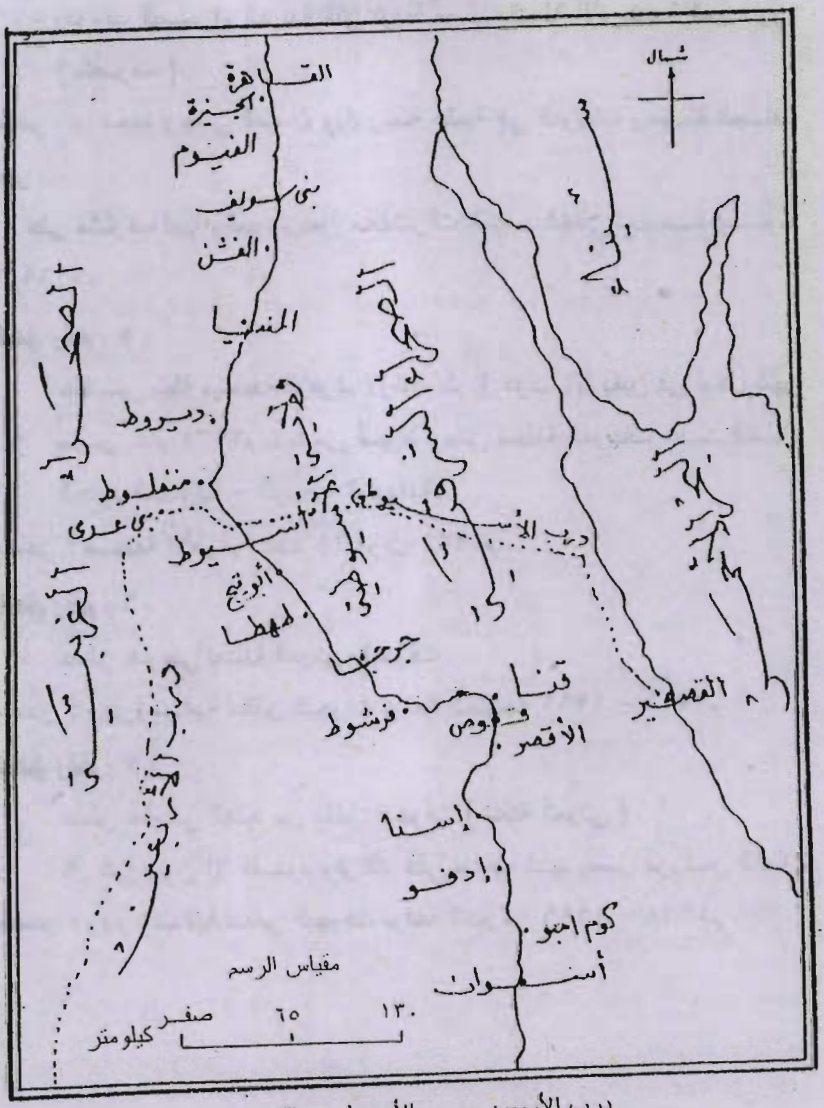

درب الأربعين ودرب الأسيوطي - القصير

ملحق رقم (٢)

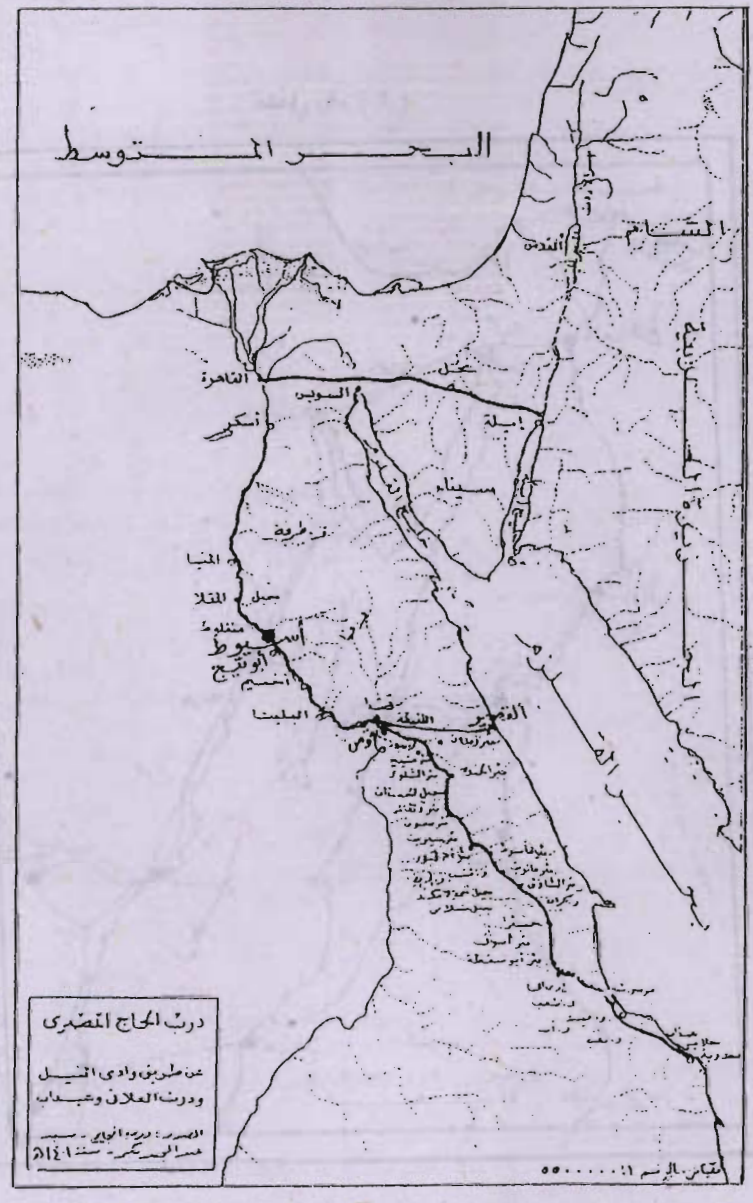
البحر المتوسط
السويس
القاهرة
أسيوط
البلينا
درب الحاج المصرى
عن طريق وادى النيل
ودرب العلاق وعجاب

ملحق رقم (٣)

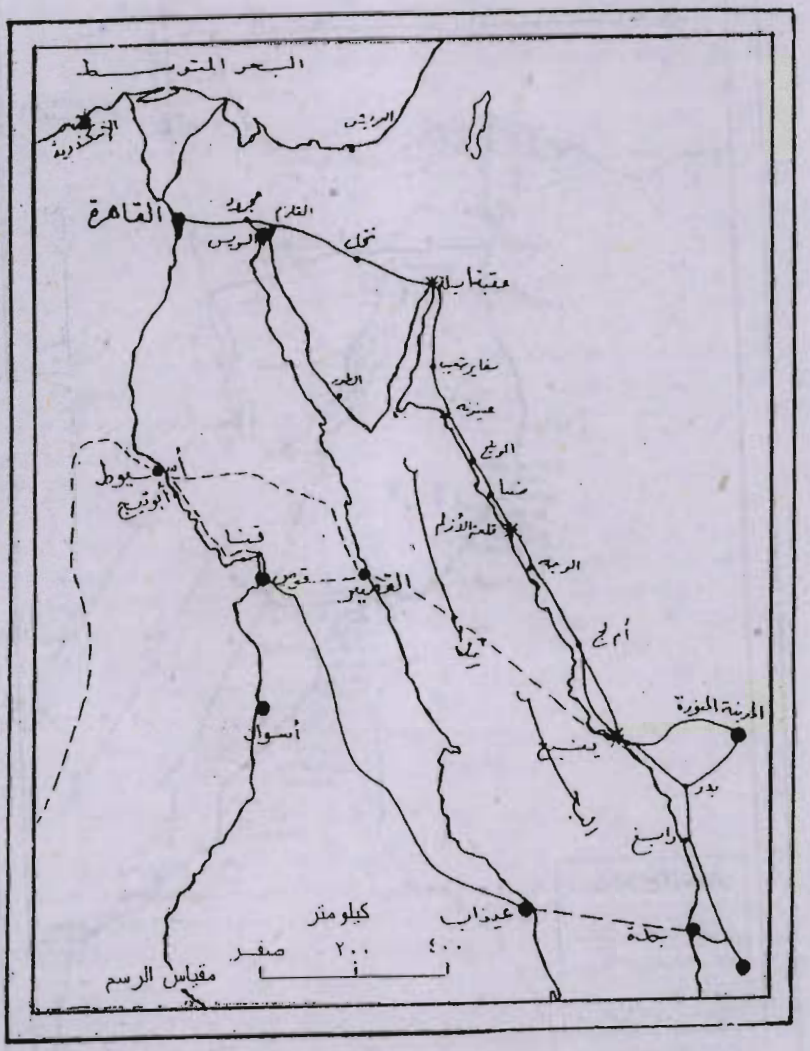
البحر المتوسط
الإسكندرية
العريش
القاهرة
بلبيس
نخل
العقبة
الطور
سفاجا
الوجه
ينبع
أبو قير
أسيوط
أبوتيج
قنا
قوص
الأقصر
أسوان
أم لج
المدينة المنورة
بدر
رابغ
جدة
عيذاب
كيلومتر
٤٠٠ ٢٠٠ صفر
مقياس الرسم

ملحق رقم (٤)

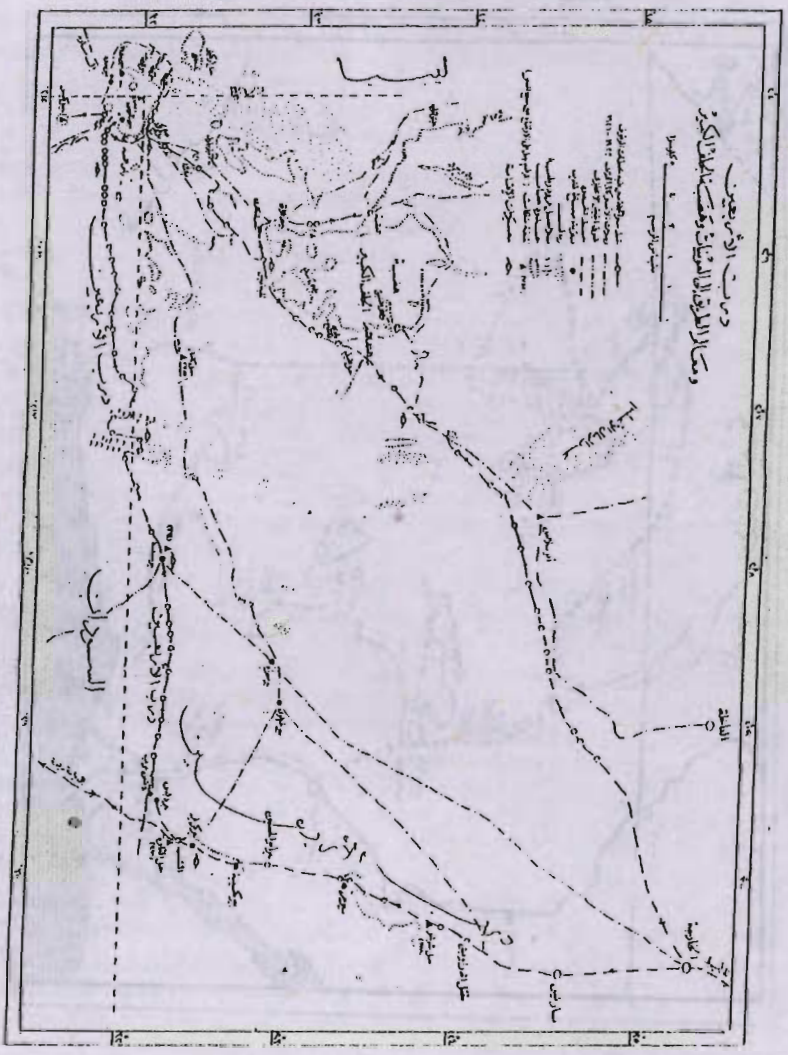
ليبيا
درب الأربعين
ومسار الطريق البري من وسط السودان إلى مصر
السودان
درب الأربعين الغربي
الفاشر
الأبيض
بربر
دنقلة
الخرطوم
سنار
سواكن
كسلا
القضارف
الباطنة
الداخلة
الخارجة
واحة سيوة

ملحق رقم (٥)

بعثة الأهرام الى صحراء ليبيا على حدود السودان

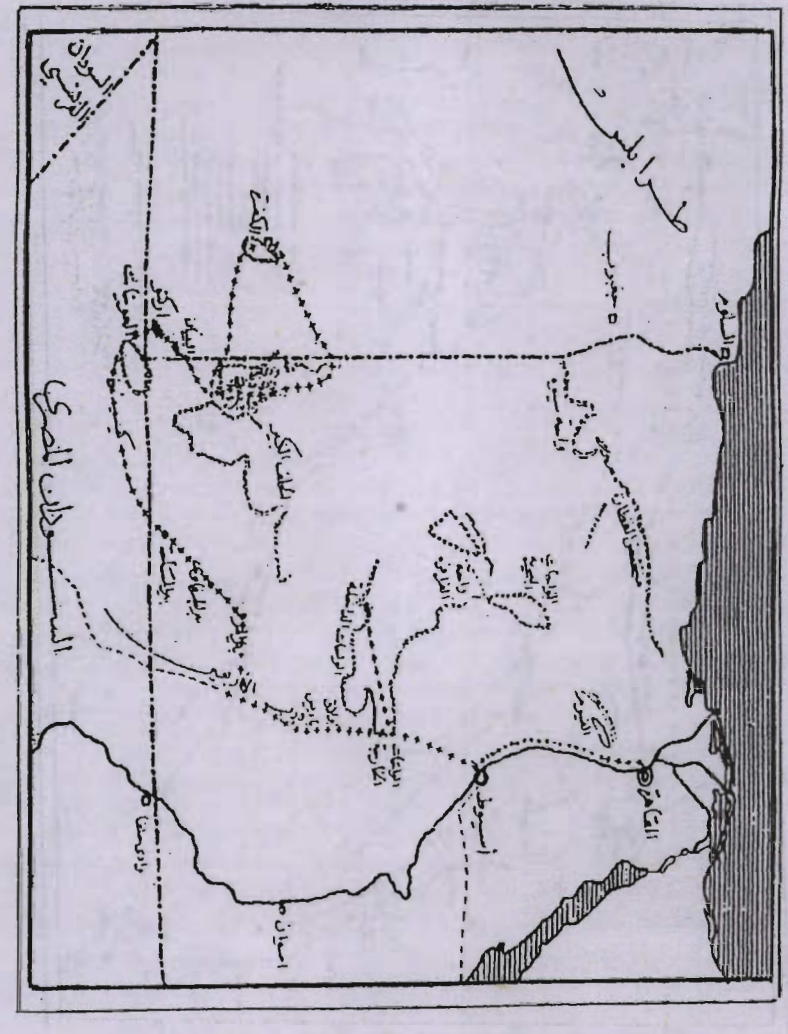

ملحق رقم (٦)

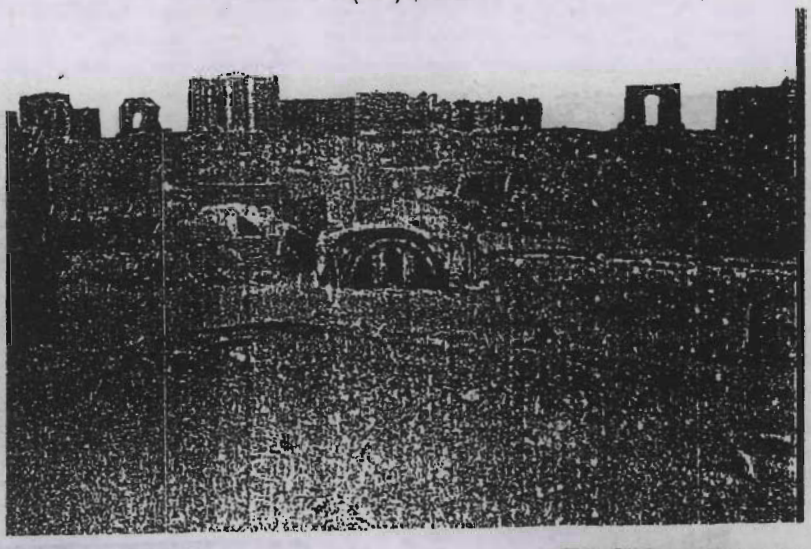

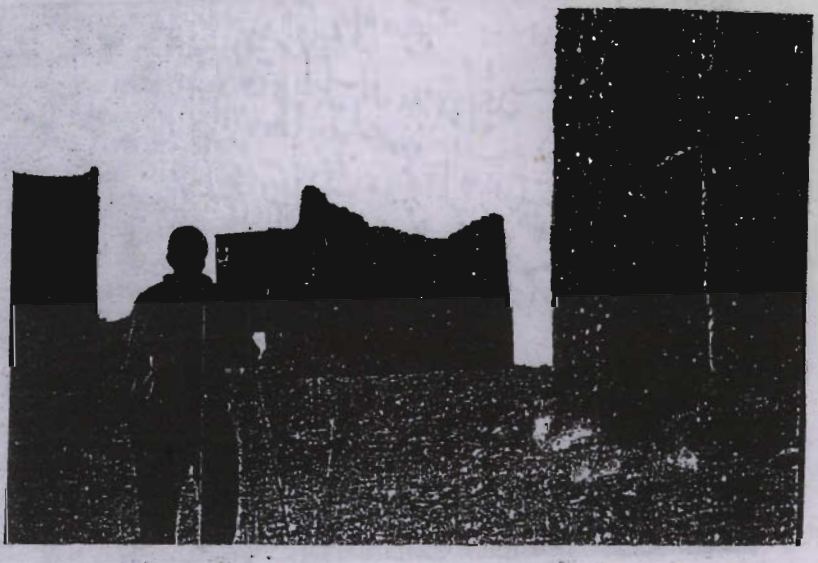

منظر خارجى لمدينة الموتى بالبجوات

ملحق رقم (٧)

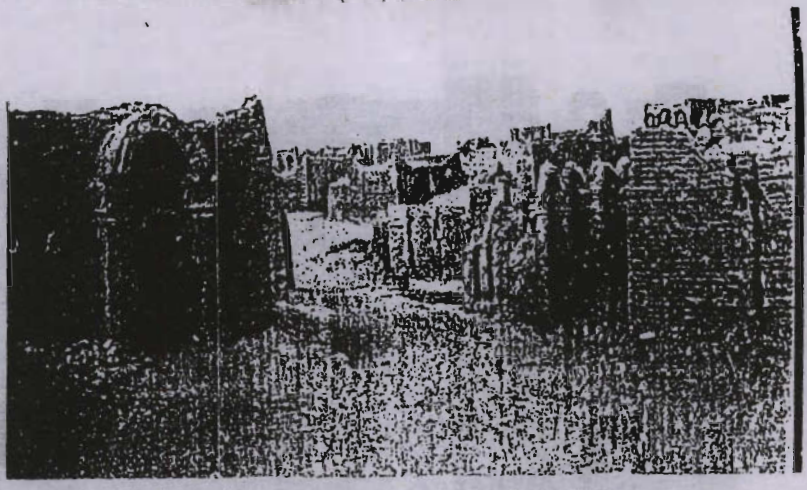

منظر خارجي للعديد من مقابر البجوات (مدينة الموتى)

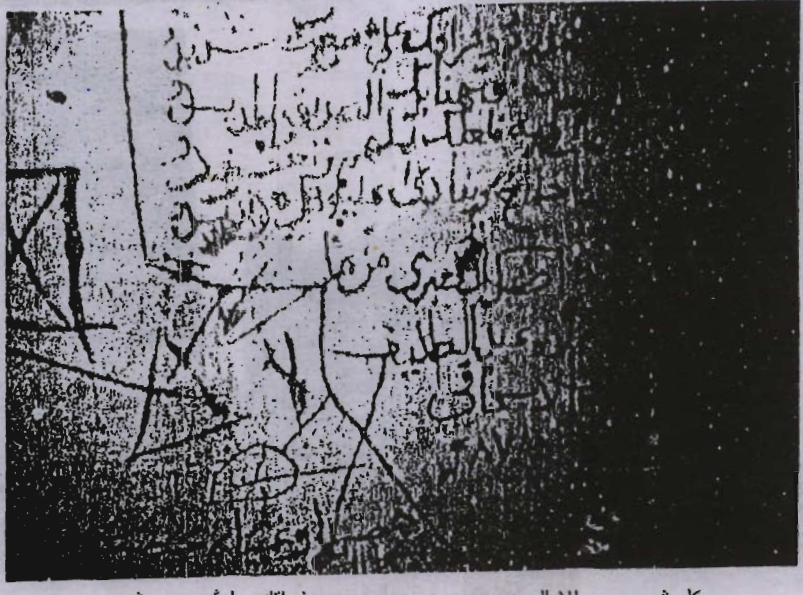

كل شئ يهون إلا الصدود وفراقك عليَّ صعب شديد

بعض من شعر التجار .